

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، من علينا بالإيمان وشرفنا بتلاوة القرآن؛ فأشرفت علينا بحمد الله أنواره، وفاضت على العاملين به عند تدبره جمل من عجائبه وأسراره.

فسبحان من أنزل على عبده الكتاب، وجعله لأهل الفقه المتمسكين به من أعظم الأسباب ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩
والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد بن عبد الله أشرف المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن الفقه في القرآن الكريم من أعظم نعم الله على العبد وأعظمها بركة، ولا يمكن العمل بالقرآن على الوجه الصحيح إلا لمن وفق إلى فهمه حق الفهم.
وهذا الفهم لا يتأتى إلا لمن سلك المسلك الصحيح في تحصيله.
واني بعد البحث والنظر أصبحت على يقين بأن المنهج الحق لتحقيق الفقه التام في كتاب الله تعالى له معالم بيّنة، وأمارات جلية، دل عليها الكتاب والسنة.
وهذه المعالم هي موضوع هذا البحث.
ولذا سميت: معالم منهجية في فقه القرآن الكريم.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

سأوجز أهمية الموضوع وأسباب اختياره في ثلاث نقاط:

1- هذا الموضوع يتناول المنهج الصحيح للفقه في كتاب الله عز وجل؛ الذي عظم الله قدره ورفع شأنه؛ فأهمية هذا الموضوع نابعة من أهمية القرآن وعظمته.

2- الفقه في القرآن هو السبيل لتحقيق الغاية التي نزل من أجلها القرآن، وهي العمل به، واتخاذ منهج حياة.

3- المعالم التي تحدد المنهج الصحيح لتحقيق فهم القرآن - يحتاجها العالم والمعلم وكل من يقرأ القرآن، كل بحسبه.

أهداف الموضوع:

1- بيان المنهج الصحيح لطالب العلم الذي يريد الفقه في كتاب الله تعالى، وتلقيه على الوجه الصحيح.

2- القرآن يهدي للتي هي أقوم، في كل زمان ومكان، وفي جميع مناحي الحياة، وهذا يتطلب فهما عميقا للقرآن، يمكن به استنباط أحكام للنوازل التي تنزل مع تجدد الأحوال وتغير الأزمان. وتحقيق ذلك منوط بسلوك المنهج الصحيح في تلقي القرآن والفقه فيه.

خطة البحث:

المقدمة.

تمهيد في الغاية من إنزال القرآن وفضل التفقه فيه.

المعلم الأول: استشعار نعمة القرآن وأهمية شكر المنعم بها.

المعلم الثاني: استقرار محبة القرآن وتعظيمه في القلب.

المعلم الثالث: الأخذ بمنهج الصحابة في تلقي القرآن.

المعلم الرابع: الفهم الصحيح للقرآن مبناه على الفقه في الدين.

المعلم الخامس: ملازمة التدبر؛ للتذكر، عند تلاوة القرآن واستماعه.

المعلم السادس: إحياء القلب وتقويته بإقامة الفرائض والمداومة على النوافل.

المعلم السابع: أهمية سلامة القلب وتطهيره من أدران الشبهات والشهوات.

الخاتمة.

الفهارس.

منهج البحث:

- عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن.
- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث مع الحرص على بيان درجة الحديث؛ إذا كان في غير الصحيحين.
- العناية بالتفسير بالأثر - لاسيما آثار الصحابة - مع الحرص على بيان حال السند ما أمكن.
- شرح غريب اللغة والحديث، وضبط ما يحتاج إلى ضبط بالشكل.
- التزام المنهج العلمي في توثيق النصوص بعزوها لقائلها من كتبهم مباشرة، إلا إذا تعذر الأصل.

التمهيد

الغاية من إنزال القرآن وفضل التفقه فيه

إن الغاية العظمى من إنزال القرآن هي: أن يكون كتاب هداية، ومنهج حياة، ومنقذا من الضلالة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل: ٦٤.

وصيغة القصر في الآية؛ لتقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. أي: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن؛ إلا لغايات سامية، ومقاصد عظيمة، هي تبين الحق للناس، فيما كان موضع اختلافهم. فالقرآن لا يترك للباطل مسلكا إلى النفوس، وهو مفصح عن الهدى إفساحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، وهو هداية تامة، ورحمة عامة، الناس محتاجون إليها، ومضطرون لها أشد الاضطرار⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ النحل: ٤٤.

قال السعدي في تفسيرها: "﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم وديناهم الظاهرة والباطنة؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل: لتبين ألفاظه، وتبين معانيه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ فيه؛ فيستخرجون من كنوزه وعلومه، بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه"⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السعدي ص 443، والتحرير والتنوير 158/13.

(2) تفسير السعدي ص 441.

ولما كانت حاجة الناس إلى هذا الذكر بهذا القدر؛ أتم الله النعمة، بأن تكفل بحفظه: من التبديل، والتحريف، والتغيير، والزيادة، والنقصان.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩، والضمير في قوله: لَهُ: عائد على الذكر، على الصحيح في تفسير هذه الآية^(١).

وهذا الحفظ المذكور في الآية له وجوه عديدة، شاملة للفظه ومعناه، في جميع الأحوال. قال الإمام السعدي: "﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾: أي في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقبض الله له من بين الحق المبين. وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين. ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عدوا يجتاحهم"^(٢).

ومن أدلة حفظه: قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فصلت: ٤١-٤٢^(٣).

قال قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه^(٤). وقال الزجاج: "في تفسيرها وجهان أحدهما: أن الكتب التي تقدمت لا تبطله، ولا يأتي بعده كتاب يبطله، والوجه الثاني: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزداد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، والدليل على هذا قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾"^(٥).

(١) انظر أضواء البيان 2/255.

(٢) تفسير السعدي ص 429.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم 7/2258.

(٤) انظر تفسير الطبري 21/479، تفسير البغوي 7/176، والدر للنشر 7/332.

(٥) معاني القرآن وإعرابه 4/388.

وكلا القولين من معاني الحفظ، فلا إشكال.

ومعنى قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء. ولهذا أكد هذا المعنى بقوله: ﴿لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة، ولا نقصان، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظ في ألفاظه ومعانيه⁽¹⁾.

ومن أدلة حفظه أيضا: قوله تعالى: ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ القيامة: 17.

وقد نقل الإمام الزركشي الإجماع على أن المراد بهذه الآية هو حفظ الله للقرآن، فقال عند إيراده لها: "وأجمعت الأمة أن المراد بذلك حفظه على المكلفين للعمل به وحراسته من وجوه الغلط والتخليط"⁽²⁾.

ومن تمام العمدة أيضا، إضافة إلى حفظه - أي الذكر - أن يسره الله للناس.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القم: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، لمن أراده والانتفاع به؛ لأنه أحسن الكلام لفظا، وأصدق معنى، وأبينه تفسيرا. وهذه الآية يفسرها قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَّبُوهَا لِيُنزِلُهَا عَلَيْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ وَتُخَوِّفَ بِهِ الْأَعْيُنَ الْمُجْرِمَاتِ وَتُنذِرَ بِهِ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الدخان: ٥٨⁽³⁾.

(1) انظر تفسير السعدي ص 750.

(2) البرهان في علوم القرآن 127/2.

(3) انظر تفسير ابن كثير 478/7، وتفسير السعدي ص 824.

وقال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني هونا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن⁽¹⁾.

وقال سعيد بن جبیر: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن⁽²⁾. يعني عن ظهر قلب.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين؛ ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل⁽³⁾.

وقال القرطبي: "ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه - لضعفت، ولانذكت بثقله، أو لتضعفت له. وأنى تطيقه، وهو يقول تعالى جده وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١. فأين قوة القلوب من قوة الجبال، ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة"⁽⁴⁾.

"والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون: من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة، والأخبار الصادقة. ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً - أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع، الذي إذا طلبه العبد؛ أعين عليه"⁽⁵⁾.

(1) انظر صحيح البخاري 1844/4، وتفسير الطبري 584/22، وتفسير ابن كثير 478/7.

(2) الوسيط للواحدى 209/4، وتفسير البغوي 429/7.

(3) تفسير ابن كثير 478/7.

(4) تفسير القرطبي 4/1.

(5) تفسير السعدي ص 824.

قال قتادة في قول الله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾، قال: هل من طالب خير يعان عليه (1). وهذا اليسر المذكور في الآية حاصل في القرآن من وجوه متعددة: في مبانيه، ومعانيه، وحروفه، ولغته، والمتلقين له (2).
فأما المباني؛ فلكونها في أعلى درجات الفصاحة، في ألفاظها وتراكيبها، وكذا انتظام مجموعها؛ بحيث يخف حفظها وأداؤها على الألسنة.
وأما اليسر في معانيه؛ فحاصل بوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحوي عليه تلك التراكيب من مقاصد، سبقت لغرض معين. ويتولد معان من معان آخر؛ كلما كرر المتدبر تدبره في فهمه.

ووسائل تحقيق يسر معانيه لا يحيط بها الوصف:
ومن أهمها: إيجاز اللفظ؛ لأجل سرعة تعلقه بالحفظ.
ومنها: إجمال المدلولات؛ لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام.
ومنها: الإطناب بالبيان؛ إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء.
وأما اليسر في حروفه؛ فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ تيسيرا لتلاوته.
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) متفق عليه (3).

(1) تفسير الطبري 584/22.

(2) هذه الوجوه مستفادة من تفسير ابن كثير 478/7، وتفسير السعدي ص 824، والتحرير والتنوير 181/27.

(3) صحيح البخاري 1909/4 - باب أنزل القرآن على سبعة أحرف - حديث رقم 4706، وصحيح مسلم

202/2 - كتاب صلاة للمسافرين - باب يان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه - حديث رقم 1936.

وعن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار، قال: فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ. فَقَالَ: (أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ). ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ: (أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ). ثُمَّ جَاءَهُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ. فَقَالَ: (أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ). ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَعُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا. رواه مسلم (1).

وأما اليسر في لغته؛ فقد جاء تأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر، وأسمحها ألفاظاً وتراكيب، وأغزرها معانٍ ودلالات. فهذا القرآن خيار من خيار من خيار؛ كما قال تعالى:

﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء: ١٩٥.

وأخيراً فإن من كمال هذا اليسر أن الله جعل المتلقين لهذا القرآن أمة هي أذكى الأمم عقولاً، وأسرعها أفهاماً، وأشدّها وعياً لما تسمعه، وأطولها تذكراً له، دون نسيان. وأفرادها على تفاوتهم في هذه الخلال إذا اجتمع أصحاب الأفهام منهم على مدارسة القرآن وتدبره؛ بدت لمجموعهم معانٍ لا يحصيها الواحد منهم وحده.

ولذا فقد مدح الله كتابه، ومجده، وعظمه؛ لما فيه من الكمالات، فقال عز شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ

لَنَزَّلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ يَلِسَانٍ

عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.

(1) صحيح مسلم 2/203 - كتاب صلاة للمسافرين - باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه - حديث رقم 1943. والأضادة: هي للماء للمستقع، كالغدير، وتجمع على أضاد، كحصاة وحصاء، وعلى إضاء، بكسر الهمزة ولام، كأكمة وإكام. انظر لسان العرب 14/38، مادة (أضاد).

يقول السعدي عند تفسيره لهذه الآيات: "وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم: فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو اللسان العربي المبين" (1).

فضل التفقه في القرآن:

فلما كانت الغاية من إنزال القرآن أن يكون كتاب هداية، ومنهج حياة، وتكفل الله عز وجل -لهذا الغرض- بحفظه، ويسره للذكر، لما كان كذلك؛ حث على مدارسته، والتفقه فيه، وجعل العالمين به هم أهل الخير والذكر، وهم المرجع للناس في الفتوى والنوازل. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة:

فمنها قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ

خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالحكمة في الآية هو القرآن واستظهاره والفقهاء فيه. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وأبي العالية، وقتادة، رحمهم الله تعالى: أن المراد بالحكمة هنا الفقه في القرآن. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه فسرها بـ "قراءة القرآن، والفكرة فيه". وفسرها كل من: مقاتل بن حيان، وقتادة، والحسين بن واقد: بأنها استظهار القرآن، أي: حفظه، وقراءته عن ظهر قلب (2).

وقال مقاتل بن سليمان في تفسيرها: هي علم القرآن والفقهاء فيه (3).

ومنها قوله تعالى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣.

(1) تفسير السعدي ص 598.

(2) انظر تفسير الطبري 5/576، وتفسير ابن أبي حاتم 2/533، والدر للنشر 2/66.

(3) تفسير مقاتل 1/146.

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد أهل الذكر، أن المراد بهم أهل الكتاب. ويؤيده أن سياق الآية هو في أهل الكتاب.

وقال أبو جعفر الباقر في تفسيرها: نحن أهل الذكر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الذكر: القرآن، وقرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الذِّكْرِ لَمَجَاجَةٌ هُمْ...﴾ فصلت: ٤١ (1).
والمقصود أن في عموم الآية تعظيماً لأهل العلم بالقرآن، ودعوة للنقطة فيه.

قال السعدي عند تفسيرها: "وعوموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتركية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم؛ فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال" (2).

وأما الأحاديث، فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) رواه مسلم (3).

ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ آثَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ فَفَقَامَ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَتَصَدَّقَ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ) منفق عليه (4).

(1) انظر هذه الأقوال في تفسير الآية في تفسير الطبري 208/17.

(2) تفسير السعدي ص 441.

(3) صحيح مسلم 71/8 - كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر - حديث رقم 7028.

(4) صحيح البخاري 1919/4 - كتاب فضائل القرآن - باب اغتباط صاحب القرآن - حديث رقم 4737، وصحيح مسلم 201/2 - كتاب صلاة للمسافرين - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقهه أو غيره فعمل بما وعلمها - حديث رقم 1931.

والقيام بالقرآن يشمل: حفظه، وفقهه، والعمل به.

وعقد الإمام البخاري بابا في صحيحه، فقال: باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ثم أسند عن معاوية رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) الحديث (1).

أي يفهمه ويصره في كلام الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن ذلك يقوده إلى التقوى، والتقوى تقوده إلى الجنة (2).

ولما كان الفقه في القرآن بهذه المنزلة العالية، وله هذا الفضل العظيم؛ فحري بمن سعى في تحصيله؛ أن يسلك في هذا المنهج الصحيح والطريق التويم.
هذا المنهج له معالم واضحة تدل عليه، وأمارات تحدد.

المعلم الأول

استشعار نعمة القرآن وأهمية شكر المنعم بها

يعد هذه المعلم من أهم المعالم المعنية على السعي في فهم القرآن على الوجه الصحيح، وهي الخطوة الأولى التي ينبغي أن يخطوها من رام الفقه في كتاب الله تعالى.
وهو من خلال عنوانه يقوم على أصليين:
الأول: الشعور بنعمة القرآن وجلالة قدرها وعظم ثمرتها.
الثاني: الشعور بضرورة القيام بشكر هذه النعمة.
أما الأصل الأول فبيانها فيما يلي:

(1) متفق عليه. صحيح البخاري 40/1 - كتاب العلم - باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين - حديث رقم 71، وصحيح مسلم 94/3 - كتاب الزكاة - باب النهي عن المسألة - حديث رقم 2436.
(2) فيض التدبير للمناوي 510/3.

لا جرم⁽¹⁾ أن الله تبارك وتعالى قد أنعم على عباده بنعم غامرة، ظاهرة وباطنة، لا تعد ولا تحصى، كما قال عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ لقمان: ٢٠.

وكما قال أيضا في موضعين من كتابه: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إبراهيم: 34، النحل: ١٨.

بل إنه تعالى جعل ما في السموات وما في الأرض مسخرا للأمم، كما قال عز شأنه: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لقمان: ٢٠.

يبد أن أعظم نعمه عز وجل على عباده هي هدايتهم إلى صراطه المستقيم، وإلى دينه القويم؛ ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

ومن نظر في حال البشرية قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم هاله ما انتهت إليه من الضلال المبين والانحدار إلى أدنى دركات الانحطاط، في شتى مجالات الحياة.

قد انطمست معالم الدين الحق، وانطفأت أنوار النبوات، وانحسر المعروف، وساد المنكر، وظهر الفساد في البر والبحر، فكان نزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم أعظم نعمة امتن الله بها على أهل الأرض.

(1) نُقِلَ عن الفراء أن قال في معنى لا جرم: "هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فحرت على ذلك وكثرت حتى تحوّلت إلى معنى القسّم، وصارت بمنزلة حقاً، فلذلك يجاب عنه باللام، كما يجاب بما عن القسّم. ألا تراهم يقولون: لا جرم لا تيأك" اهـ الصحاح للجوهري 1886/5، مادة (جرم). وقال الطاهر ابن عاشور: "لا جرم كلمة جزم ويقين، حرت مجرى للثل، وقد اختلف أئمة العربية في تركيبها، وأظهر أقوالهم أن تكون "لا" من أول الجملة و"جرم" اسم بمعنى محالة، أي: لا محالة، أو بمعنى بد، أي: لا بد. ثم يجيء بعدها أن واسمها وخبرها. ولما فيها من معنى التحقيق والتوثيق تعامل معاملة القسم فيجيء بعدها ما يصلح لجواب قسم نحو: لا جرم لأفعلن" اهـ باختصار. التحرير والتوير 233/11.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤

ومن خلال هذه التلاوة الدائمة والتربية الدائمة والتزكية والتعليم صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن على عينه جيلا لا نظير له في التاريخ، وأخرج للناس أمة هي خير الأمم وأزكاها على الإطلاق.

قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠.
أي أنهم خير الأمم، وأنفع الناس للناس^(١).

وسر ذلك: أنهم قاموا أولا بتكميل أنفسهم، بالإيمان، المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به. ثم إنهم ثانيا: اقتصوا بتكميلهم لغيرهم، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، المتضمن دعوة الخلق إلى الله، وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم^(٢).

قال أبو هريرة رضي الله عنه: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، قال: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ^(٣).

وحالهم على الدوام كما قال الإمام أحمد رحمه الله: "يدعون من ضل إلى الهدى، ويصرون منهم على الأذى. يحيون بكتاب الله الموتى، ويصرون بنور الله أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه. فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم"^(٤).

(١) قاله ابن كثير في تفسيره 93/2.

(٢) انظر تفسير السعدي ص 143.

(٣) صحيح البخاري 1660/4 - كتاب التفسير - باب قوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس - حديث رقم 4281.

(٤) الرد على الزنادقة والجهمية ص 6.

ولهذا مدحهم عز وجل بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٣.

أي جعلهم أمة خيارا عدولا، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم، وأعمالهم، ونياتهم. وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسول على أممهم يوم القيامة. والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم؛ فهم شهادؤه. ولهذا نوه بهم، ورفع ذكركم، وأثنى عليهم؛ لأنهم يشهدون بعلم وصدق؛ فيخبرون بالحق، مستملا إلى علمهم به، كما قال تعالى: ﴿الْأَمَنَ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف: ٨٦ (1).

فهذا صنيع القرآن بهذه الأمة، على يد أعظم الرسل وخاتمهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وإن المرء ليعجب - كل العجب - من إعراض أكثر الناس عن هذا الهدى الثام والنور المبين، الذي جعل الله العز والشرف والتمكين في هذا الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة - للأمة والأفراد - منوطا بالأخذ به.

ولهذا سفه الحق تبارك وتعالى أقواما أعرضوا عنه، ولم يرفعوا به رأسا، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء: ١٠. وقد فسر ابن عباس الذكر هنا بالشرف (2).

وبوضحه قوله تعالى: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون: ٧١ (3). وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الزخرف: ٤٤. أي: وإنه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه (4).

(1) انظر إعلام الموقعين لابن القيم 133/4.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، كما في الدر المنثور 617/5، والبيهقي في شعب الإيمان 232/2، رقم الأثر 1616. وانظر تفسير ابن كثير 344/5.

(3) انظر تفسير الطبري 416/18.

(4) انظر تفسير الطبري 610/21، وتفسير ابن كثير 229/7.

وأما الأصل الثاني، وهو الشعور بضرورة القيام بشكر الله تعالى المنعم علينا بالقرآن؛ فإنه ثمرة للأصل الأول، ونتيجة له؛ لأن من كان على علم وشعور متجدد بعظم نعمة القرآن؛ فإنه لا يبد بفطرته أن يتوجه إلى صاحب هذه النعمة؛ ليشكره عليها.

وكلما كان شعوره بهذه النعمة قويا وصادقا؛ كان شكره كذلك.

والشكر مبناه على ثلاثة أركان⁽¹⁾:

اعتراف القلب بنعم الله عليه.

ثم التحدث والثناء على الله بها.

والثالث: صرفها في مرضاته تعالى؛ فهو: وليها، ومسديها، ومعطيها.

ومما يقوي هذا أن يتذكر المستشعر لنعم الله عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ كَهَذَا إِبراهيم: ٧ .

قال الحسن، وسفيان الثوري: أي لأزيدنكم من طاعتي⁽²⁾.

وقد أورد ابن القيم هذا التفسير للآية، ثم قال: "والتحقيق أن الزيادة من النعم، وطاعته من

أجل نعمه" اه⁽³⁾.

وشكر الله على نعمة القرآن هو بالقيام بحقه والعمل به.

والموفق إلى هذا هو المغبوط حقا.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لَا

حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ الْحَدِيثُ⁽⁴⁾).

(1) انظر الوابل الصيب لابن القيم ص 11، وتفسير السعدي ص 422.

(2) تفسير الطبري 527/16، وفتح الباري 73/9.

(3) علة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص 119.

(4) صحيح البخاري 1919/4 - باب اغتباط صاحب القرآن - حديث رقم 4738.

وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ) الحديث (1). والمراد بالقيام به العمل به تلاوة وطاعة (2).

وإذا كان شكر الله على نعمة القرآن هو بالقيام بحقه والعمل به؛ فإن هذا لا يتأتى إلا بتعلمه والفقهاء فيه. كما سيأتي بيانه في مواضعه في المعلمين: الثالث، والرابع.

المعلم الثاني

استقرار محبة القرآن وتعظيمه في القلب

يمثل هذا المعلم الخطوة الثانية التي ينبغي أن يخطوها من أراد أن يسلك المنهج الصحيح لفهم كتاب الله عز وجل.

فإن من تمكن لديه الشعور بعممة القرآن وجليل قدرها وعظيم أثارها؛ حمله ذلك على طلب تحصيلها.

والسبيل إلى هذا المطلب الشريف يبدأ ببناء الأساس الراسخ لهذه العممة: بأن يغرس في قلبه محبة القرآن وتعظيمه.

وتحقيق ذلك يكون بأمرين:

الأمر الأول: أن يملأ العبد قلبه بتعظيم الله عز وجل ومحبتة؛ لأن القرآن كلامه، وهو المنعم به على عباده.

(1) صحيح مسلم 558/1 - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه - حديث رقم 815 . المراد بالحسد هنا الغبطة، قال النووي: " الغبطة هو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة وإن كانت طاعة فهي مستحبة والمراد بالحديث لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما". شرح النووي على صحيح مسلم 97/6 . ويؤيد أن المراد بالحسد الغبطة ما جاء في بعض طرق هذا الحديث عند البخاري، فقال فيه: (ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل). انظر عمدة القاري 57/2.

(2) تفسير السعدي ص 124.

ومقدار هذا العظيم وهذه المحبة إنما يكون بقدر ما في القلب من علم ويقين بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

ولهذا فإن الله تعالى عظم أولي العلم، وجعلهم من خيار وخواص خلقه؛ حين استشهد بهم على أجل مشهود عليه، وهو توحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادته ملائكته، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَهَّدَ اللَّهُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ آل عمران: ١٨^(١).
" والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر "^(٢).

فمعرفة أولي العلم بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، واستحقاقه وحده للعبادة، مع كونه قائما بالقسط - قد بلغت عين اليقين؛ فكأنهم قد عاينوا بأبصارهم ما شهدوا به.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ سبأ: ٦.

قال ابن عاشور: " واختير فعل الرؤية هنا، دون "ويعلم"؛ للتبنيء على أنه علم يقيني، بمنزلة العلم بالمرئيات التي علمها ضروري " اهـ^(٣).

ولا عجب فهم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا العلم، وبنوه للأمة، وذبوا عنه، وحموه من تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين؛ امتثالا لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يُنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ)^(٤).

(1) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم 48/1.

(2) تفسير السعدي ص 124.

(3) التحريز والتنوير 145/22.

(4) أخرجه الأجرى في الشريعة 273/1، من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العنزي. وصححه الإمام أحمد، كما ذكر الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث 29/1. قال ابن القيم في شرحه لهذا الحديث: " فأخبر أن الغالين يحرفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من

و لما كان أولو العلم بهذه المنزلة من اليقين؛ جعل الله تعالى خشيتهم له هي الخشية، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨ .
وقال أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩ .

وإذا كان المؤمنون أشد حبا لله من أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة: ١٦٥؛ فإن أولى العلم أجدر الناس وأولاهم بهذا المدح.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم؛ فإنهم خيارهم" اه (1).

فأولو العلم هم أشد المؤمنين حبا لله تعالى؛ لكامل معرفتهم وبرهم وإخلاصهم في عبادتهم.
قال ابن كثير: "وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبهم لله، وتام معرفتهم به، وتوقيرهم، وتوحيدهم له؛ لا يشركون به شيئا، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه" اه (2).

والإيمان في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ شامل لخضوع القلب والجوارح لحكم الله ورسوله.

ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران: ٣١ .

هؤلاء الطوائف الثلاثة، فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله" اه.

إغاثة اللفهان 1/159 .

(1) مجموع الفتاوى 10/111 .

(2) تفسير ابن كثير 1/203 .

والشاهد قوله: **فَاتَّبِعُونِي**، أي: أن علامة صدق من يدعي محبة الله هي اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: **.. فاتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته باطنًا وظاهرًا هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله، وموالاته أوليائه، ومعاداة أعدائه هو حقيقتها، كما في الحديث: (أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ) (1). وفي الحديث: (مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ) (2) اهـ (3).**

ولا يبلغ العبد الكمال في محبة الله تعالى حتى يبلغ الكمال في اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يبلغ الكمال في اتباع نبيه حتى يبلغ الكمال في محبته.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)** متفق عليه.

قال الإمام أبو سليمان الخطابي: **"معناه لا تصدق في حبي حتى تُفني في طاعتي نفسك وتؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك"** اهـ (4).

وقال الحافظ ابن رجب تعليقا على هذا الحديث: **"ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم تابعة لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ**

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 6/172 - حديث رقم 30443، عن ابن مسعود رضي الله عنه. وحسنه الألباني في

السلسلة الصحيحة 3/72 عند حكمه على الحديث رقم 998.

(2) أخرجه أبو داود في سننه 4/354 - باب الدليل على زيادة الإيمان وتقضائه - حديث رقم 4683، عن أبي أمامة

رضي الله عنه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 1/379 - حديث رقم 380.

(3) مجموع الفتاوى 10/82.

(4) نقله عنه النووي في شرح صحيح مسلم 2/15.

أَقْرَفْتُمُوهَا وَتَجَدَّرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْنُكُنْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ التوبة: ٢٤
"اه(1).

ولهذا فإن من علامات صدق المحيين لله تعالى ما جاء في وصفهم بقوله عز وجل: ﴿يُؤْتِيهِمْ أَذْنًا
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَافًا عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ المائدة: ٥٤.

فهم للمؤمنين أذلة. ودليل ذلك محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم، ورفقهم، ورافقتهم،
ورحمتهم بهم، وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم.

وهم على الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكنيين لرسله - أعزّة، قد اجتمعت هممهم
وعزائمهم على معاداتهم، وبللوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم (2).

إن من أعظم الأسباب الموجبة لمحبة الله تعالى والحمد والشكر له؛ مشاهدة منته وآثار
أطافه على عبده (3).

فمن أراد أن ينمي ويقوي محبة الله في قلبه؛ فليداوم على استحضار منة الله وأفضاله عليه،
في نفسه، وفي سائر شؤونه. لاسيما نعمة القرآن، المورثة لسعادة الدارين.

والحاصل أنه كلما كانت المعرفة للحكيم العليم القدير - الموصوف بصفات الكمال
والجلال والجمال، المنعوت بالأسماء الحسنی - أتم، والعلم به أكمل؛ كانت الخشية له في
القلب أعظم والإجلال له أكبر والمحبة له أكثر.

(1) جامع العلوم والحكم ص 389.

(2) تفسير السعدي ص 235.

(3) انظر الوايل الصيب لابن القيم ص 22.

مَعَالِمُ مِنْهَجِيَّةٍ فِي فِقْهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - د. عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ السُّحَيْبَانِيُّ

والأمر الثاني المعين على غرس محبة القرآن وتعظيمه في القلب: هو العلم بصفات هذا القرآن ومفاخره العظيمة وخصائصه المعجزة، والتي ستقود حتما إلى زيادة الإيمان والإيقان به، وبمصدره وأنه تنزيل من حكيم حميد.

ولذا؛ فكثيرا ما يقرن الحق تبارك وتعالى في الآيات التي تشيد بالقرآن بين ذكر صفاته ومصدره.

إن هذه المعرفة بصفات القرآن وخصائصه ستؤدي - بلا ريب - إلى استقرار محبة القرآن وتعظيمه في القلب.

وقد مدح الله كتابه الكريم أعظم المدح، وعظم شأنه؛ لأنه كلامه، وأشاد بخصائصه وصفاته في آيات كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كُنُوبًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا فِي نَفْسٍ مَنجُودٍ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَّيْنُ جُلُودَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الزمر: ٢٣. أي: هو أحسن الحديث على الإطلاق؛ لأنه كلام الله. وعليه فهو أحسن كنبه المنزلة، وألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، ومعانيه أجل المعاني وأبلغها مُتَشَابِهًا في الحسن والائتلاف، يصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وكلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر؛ رأى من اتفاهه - حتى في معانيه الغامضة - ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم⁽¹⁾.

(1) انظر تفسير الطبري 279/21، وتفسير البغوي 115/7، وتفسير السعدي ص 722، والتحرير والتوير لابن عاشور 65/24.

وفي الابتداء باسم: "الله"، وبناءً "نَزَلَ" عليه تفخيم لأحسن الحديث، ورفع لمحلّه، ودليل على حسنه، وتأكيد لاستتاده إليه تعالى، وأنه من عنده، لا يمكنُ صدوره عن غيره، والتشبيهُ على أنه وحيٌّ معجزٌ⁽¹⁾.

ومعنى قوله مَثَانِي: أي: يشي فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والأخبار والأحكام. قال ابن عباس والسدي: مَثَانِي: ثنى فيه الأمر مرارا. وقال الضحاك: مَثَانِي: ترديد القول؛ ليفهموا عن ربهم عز وجل. وقال عبد الرحمن بن زيد: مَثَانِي: مُرَدَّد، زُدَّ موسى في القرآن، وصالح، وهود⁽²⁾.

والسر في هذا التردد والتكرار أن حاجة القلوب لغذاء القرآن كحاجة الأشجار للماء، فكما أنها كلما بعد عهدها بسقي الماء؛ نقصت، أو تلفت، وكلما تكرر سقيها؛ حسنت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة؛ فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن؛ لم يقع منه موقعا، ولم يحصل منه المقصود⁽³⁾. ولو كان هذا التردد في كلام البشر المتمكن في الفصاحة والبلاغة؛ لتحول إلى كلام خَلَق⁽⁴⁾ ممجوج.

أما القرآن؛ فإن التردد لا يزيده إلا حسنا وجمالا.

(1) انظر الكشاف 123/4، وتفسير أبي السعود 251/7.

(2) انظر تفسير الطبري 279/21، وتفسير البغوي 115/7، وتفسير ابن كثير 93/7.

(3) أفاد هذا المعنى السعدي في تفسيره ص 722.

(4) خَلَق يعنى: بال، يقال للثوب البالي: ثوبٌ خَلَقٌ، بفتح الخاء، يستوي فيه الذكر والأنثى؛ لأن أصله للمصدر. انظر تهذيب

اللغة 30/7، مادة (خلق)، ولسان العرب 85/10، مادة (خلق)، وفتح الباري 114/1.

وقد عدَّ القاضي عياض - في كتاب الشفا - من وجوه إعجاز القرآن: " أن قارئه لا يَمَلُّه وسامعه لا يمججه، بل الإكباب على تلاوته يزيد حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غصاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ من الحسن والبلاغة مبلغاً عظيماً يُمل مع التريد، ويُعادى إذا أعيد" (1).
وقد جاء في الحديث في وصف القرآن: (بأنه لا يخلق على كثرة الرد). رواه الترمذي (2).
وقوله نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ: " أي: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨. وحقيقة المعنى: أن قلوبهم تقشع من الخوف، وتلين عند الرجاء " اه (3).

(1) الشفا 210/1.

(2) سنن الترمذي 172/5 - كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن - حديث رقم 2906. قال ابن كثير بعد إيراده لهذا الحديث في مقلمة تفسيره: " الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح. وله شاهد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص 21. وهو من رواية محمد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيراً. قال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدي: رُفِعَ كثير الوهم. انظر الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي 52/1، وتفسير ابن كثير 21/1، وتهذيب التهذيب 143/1.

(3) قاله البغوي في تفسيره 115/7. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رحمه الله في قوله: نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ: " هنا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى، قال: تقشع جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى. ولم ينعتهم الله تعالى بنهاب عقوبتهم، والغشيان عليهم، إنما هنا في أهل البدع، وإنما هو من الشيطان". الدر المنثور 221/7.

وانما ذكرت الجلود أولاً وحدها، دون القلوب التي هي محل الخشية؛ إشارة إلى شدة خشيتهم لربهم عند سماعهم أو تلاوتهم للقرآن؛ كأن هذه الخشية لما ملأت قلوبهم ظهرت على جلودهم وجوارحهم⁽¹⁾.

وفي هذه الآية دليل باهر على عظمة القرآن وشدة تأثيره في قلوب سامعيه، لاسيما أولى الألباب المهتمين منهم⁽²⁾.

يقول أبو سليمان الخطابي: "وقلت في إعجاز القرآن وجهها آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وهو صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا متثورا إذا قرع السمع؛ خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص منه إليه. قال الله تعالى عنه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُنَا لَقُرْءَانًا عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُمْ خَشِيعَةً مِنَ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فِي تَقْوِيمِهِ وَمِنْهُ جُودٌ الَّذِي يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الزمر: ٢٣" اهـ، باختصار⁽³⁾.

ومن الآيات التي امتدح الله بها كتابه وعظمه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ فِي أُولَئِكَ لَآيَاتٍ لِّعِبَادٍ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف: ٤.

(1) انظر الكشاف 123/4، وروح المعاني للأوسى 259/23، والتحرير والتنوير 70/24.

(2) انظر تفسير السعدي ص 722.

(3) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص 70. وانظر الشفا للقاضي عياض

وأم الكتاب: هو اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس ومجاهد. وقوله: لَدَيْنَا الْعِلْمُ، أي: وإنه عندنا لدنو مكانة عظيمة، وشرف، وفضل، كما قال قتادة.⁽¹⁾

وقال السعدي: " وَإِنَّهُ، أي: هذا الكتاب لَدَيْنَا في المألأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها، لَعَلِّي حَكِيمٌ، أي: لعلني في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان" اهـ.⁽²⁾

ومن الآيات التي عظمت القرآن أيضا، وبينت سر هذه العظمة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ فصلت: ٤١ - ٤٢.

أي: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ جامع لأوصاف الكمال، التي من أعظمها أنه عَزِيزٌ، لا يرام أن يأتي أحد بمثله، منيع من كل من أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال بعدها: لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، أي: قد تكفل من أنزله بحفظه عند تنزيله، وحفظه في ألفاظه ومعانيه، فلا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، وليس للبطان إليه سبيل. وسر هذه العظمة وهذا الحفظ أنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، محمودة عواقبه وغاياته.⁽³⁾

(1) انظر تفسير الطبري 566/21، وتفسير البغوي 202/7، وتفسير ابن كثير 218/7.

(2) تفسير السعدي ص 762.

(3) انظر تفسير ابن كثير 183/7، وتفسير السعدي ص 750.

ومن صفاته العظيمة أيضا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى...﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب لو محذوف⁽¹⁾. أي لكان هذا القرآن، على القول الراجح⁽²⁾.

قال ابن كثير: "يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ قَدَّ...﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتتشق، أو تكلم به الموتى في قبورها؛ لكان هذا القرآن، هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له" اه⁽³⁾.

ومن خصائصه المعجزة أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

(1) قيل: إن سبب نزولها أن قريشا قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يسيّر عنا هذه الجبال، ويفجّر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحج لنا موتانا فنكلمهم، أو يصيّر هذه الصخرة ذهباً؛ فغنيا عن رحلة الشتاء والصيف؛ فقد كان للأبياء آيات؛ فنزلت هذه الآية. انظر تفسير الطبري 447/16، وتفسير البغوي 319/4، وزاد للسير لابن الجوزي 330/4.

(2) ومن رجحه: ابن عطية في المحرر الوجيز 42/10، وابن كثير في تفسيره 460/4، والسعدي في تفسيره ص 418.

(3) تفسير ابن كثير 460/4.

قال ابن الأنباري: ﴿لَلَّتِي﴾ وصف للجمع⁽¹⁾. والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال، وأعظمها: توحيد الله والإيمان به ورساله والعمل بطاعته⁽²⁾.
وقوله: ﴿لَلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ صفة لمحذوف دل عليه قوله: ﴿يَهْدِي﴾ أي: يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التخصيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر⁽³⁾.

وقد دلت هذه الجملة الجامعة على شرف القرآن وجلالته، وأنه يهدي ويدل ويرشد إلى الأعدل والأعلى والأصوب من العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق. فمن وفق إلى التلبس بها؛ كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره⁽⁴⁾.

قال ابن عاشور: "هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً"⁽⁵⁾

ومن الآيات أيضا التي مدح الله فيها كتابه ومجده وعظمه؛ لما فيه من الكمالات قوله عز شأنه: ﴿وَإِنَّمَا نُنزِلُ رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥ .

(1) زاد المسير لابن الجوزي 12/5.

(2) انظر معاني القرآن للزجاج 229/3، وزاد المسير لابن الجوزي 12/5، وتفسير ابن كثير 27/3.

(3) انظر الكشاف 608/2، والتحرير والتنوير 40/14.

(4) انظر تفسير السعدي ص 454.

(5) التحرير والتنوير 41/14.

يقول السعدي عند تفسيره لهذه الآيات: "وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم: فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو اللسان العربي المبين" (1).

والآيات في هذا المعنى كثيرة. ولا عجب أن يتبوأ القرآن العظيم هذه المنزلة العالية؛ فهو كلام رب العالمين. إنما العجب - كل العجب - أن يعرض أكثر الناس عن هذا الهدى التام والنور المبين، الذي جعل الله العز والشرف والتمكين في هذا الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة - للأمة والأفراد - منوطاً بالأخذ به.

والمقصود أنه إذا استقرت في القلب معرفة القرآن بصفاته الجليلة وآثاره العجيبة، وأشربها القلب حقاً؛ أورت فيه محبة عميقة للقرآن، وتعظيمًا دائماً له. لاسيما إذا كان هذا القلب عارفاً بالله - منزل القرآن - حق المعرفة، محبا له غاية الحب، ومعظماً له أشد التعظيم.

ومن كان كذلك صار لديه هممة عالية؛ لتلقي القرآن، والفقاه فيه.

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما، كان يقول: إن كان ليلغني الحديث عن الرجل؛ فآتيه وهو قاتل؛ فأتوسد رداً على بابه؛ فتسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج، فيراني؛ فيقول: يا بن عم رسول الله ما جاء بك ألا أرسلت إليّ؛ فآتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث (2). وكان يقول: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (3).

(1) تفسير السعدي ص 598 .

(2) أخرجه الدرر في سنته 150/1، رقم الأثر 570.

(3) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء 344/3، وصحح إسناده.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول عنه: ذاكم فتى الكهول؛ إن له لسانا سؤولا، وقلبا عقولا⁽¹⁾.

المعلم الثالث

الأخذ بمنهج الصحابة في تلقي القرآن

لا ريب أن الصحابة رضوان الله عليهم هم أعلام الدين، ومصايح الهدى؛ فقد شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم خير القرون. وإن شأنهم لعظيم. ويكفيهم فخرا قول الحق تبارك وتعالى؛ مادحا لهم، ومزكيا:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْمُبْتَدِينَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْكُمْ فِي حُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: ١٠٠.

وقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُواكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: ١٨.

وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكَعًا سَجْدًا يَلْبَسُونَ فِضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيعٍ أَخْرَجَ مِنْهُ لُطْفًا فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح: ٢٩.

(1) أخرجه الطبراني في الكبير 265/10، رقم الأثر 10620.

وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) متفق عليه (1).
قال النووي في شرحه: " ومعناه: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أحد أصحابي، مدا ولا نصف مد. وسبب تفضيل نفقتهم؛ أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته صلى الله عليه وسلم وحمائته، وذلك معلوم بعده، وكذا جهادهم، وسائر طاعتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ الآية الحديد: ١٠. هذا كله مع ما كان في أنفسهم: من الشفقة، والتودد، والخشوع، والتواضع، والإيثار، والجهاد في الله حق جهاده. وفضيلة الصلحة ولو لحظة لا يوازنها عمل، ولا تنال درجتها بشيء. والفضائل لا تؤخذ بقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" اهـ (2).

ولما وقع بينهم بعض هنات (3)؛ خاطبهم الله تعالى - على سبيل الإنكار والتعجب أن يقع منهم ما وقع - فقال عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ آل عمران: ١٠١.

(1) صحيح البخاري 1343/3 - كتاب فضائل الصحابة - حديث رقم 3470، وصحيح مسلم 1967/4 - كتاب

فضائل الصحابة - باب تحريم سب الصحابة - حديث رقم 2541.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم 93/16.

(3) هنات يعني شر. وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية هو: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من

طريق أبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الأوس والخزرج في الجاهلية بينهم شر، فبينما هم يوماً جلوس،

ذكروا ما بينهم حتى غضبوا وقام بعضهم إلى بعض بالسلح، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك فركب إليهم

=

قال ابن كثير في تفسيرها: "يعني: أن الكفر بعيد منكم، وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم، ويبلغها إليكم" اه (1).
والآية تشير إلى رسوخ قدمهم في الإيمان؛ لأنهم قد خصوا بفضيلتين، هما عماد خيريتهم وفضلهم على غيرهم:

الأولى: مشاهدتهم تنزل القرآن، غضا طربا، حالا بعد حال.

والثانية: وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يريهم بالقرآن، ويتلو عليهم آياته البينات، التي توجب القطع بموجها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصا والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحرص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه (2).

والسؤال المهم هنا: ما المنهج الذي سلكوه رضوان الله عليهم في تلقيهم للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ بهم هذا المرتقى السامق؛ فقالوا به هذا المديح الرباني المتكرر؟
يفصح عن هذا المنهج أبو عبد الرحمن السلمي، وهو واحد من خيار التابعين، الذين عاشوا مع الصحابة وسيروا أحوالهم. وهو أيضا من كبار القراء الذين تلقوا القرآن عن الصحابة؛ فقد قرأ على عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم (3).

فتزلت: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ الآية، والآيتان بعدها. انظر تفسير الطبري 63/7، وتفسير ابن أبي حاتم 720/3،
والدر المنثور 279/2.

(1) تفسير ابن كثير 388/1.

(2) انظر تفسير أبي السعود 65/2، وتفسير السعدي ص 141.

(3) انظر معرفة القراء الكبار للذهبي 53/1.

أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: "حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقتربون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا: فعلمنا العلم والعمل" (1).

وأخرجه الطبري من طريق آخر، عن عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: "حدثنا الذين كانوا يقرئونا: أنهم كانوا يستقربون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فعلمنا القرآن والعمل جميعاً" (2).

وقد صرح بعض الصحابة بهذا المنهج النبوي في تلقي القرآن.

فقد أخرج الطبري والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن (3).

وأخرج الحاكم في المستدرک بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أهدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فيعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن. ثم قال: لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن؛ فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يلدي ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، يشره نثر الدقل (4)". قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه (5).

(1) للسند 466/38، رقم الأثر: 23482.

(2) تفسير الطبري 80/1. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح متصل.

(3) تفسير الطبري 80/1، والمستدرک 743/1، رقم الأثر 2047.

(4) أي يرميه بكلماته، من غير روية وتأمل، كما يرمى الدقل بفتحين، وهو رديء الثمر؛ فإنه لداؤته؛ لا يخفض، ويلقى مشورا.

تحفة الأحوذني للمباركفوري 3/177.

(5) للمستدرک 91/1، ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد 1/165.

وهذه الأخبار تدل على أن منهج الصحابة في تلقي القرآن يقوم على أمرين:

الأول: صدق الباعث وقوته.

والثاني: سلامة الغاية وسموها.

فالباعث لهم على تعلم القرآن والفقّه فيه هو الإيمان.

كما أن الغاية التي يبغيونها من وراء هذا الفقّه هي العمل.

والأصل في هذا المنهج آيات كثيرة، ماثورة في كتاب الله تعالى، من أظهرها دلالة نوعان:

النوع الأول:

آيات نصت على أن المنهج الذي كان يسلكه النبي صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه

بالقرآن قد جمع بين التفهيم والتزكية، وهي أربع آيات متشابهة⁽¹⁾. أكفي في هذا المقام بوحدة

منها.

وهي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَلَمُّرِزُّ الْحَكِيمِ﴾ البقرة: ١٢٩.

فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تربية الصحابة

الكرام بالقرآن يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: تعليمهم قراءة القرآن وتحويده.

الثاني: تعليمهم تفسير آيات القرآن والفقّه فيها.

الثالث: تزكيتهم بالانقياد لأحكام القرآن والعمل بها.

فقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ المراد به إقراؤهم القرآن، ليقنوه، وذلك من خلال العرض

والسماع⁽¹⁾.

(1) وهي الآية 129 من سورة البقرة، والآية 151 من السورة نفسها، والآية 164 من سورة آل عمران، والآية الثانية من

سورة الجمعة.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ عموم بعد خصوص، فالتعليم هنا عام، يشمل تعليم القراءة الذي دل عليه قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، ويشمل أيضا تفسيرها وبيان مقاصدها وأسرارها.

والمراد بالكتاب هو القرآن. وأما الحكمة: فذهب ابن زيد واختاره مالك أنها الفقه في الدين ومعرفة التأويل والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، وذهب قتادة، واختاره الشافعي إلى أنها سنة الرسول صلى الله عليه وسلم⁽²⁾.

وجمع الطبري بين ما قاله ابن زيد وقتادة، فرجح أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم.

(1) العرض والسماع من مصطلحات القراء والمخّنين، أما السماع: فهو أن يتلو المقرئ القرآن على طلابه تلاوة صحيحة مؤثرة، وهذه التلاوة تحقق غرضين، أحدهما: تصحيح القراءة لدى المتعلمين بإسماعهم القراءة الصحيحة الجيدة للثقة من فم معلمهم، قال السعدي في تفسير الآية 129 من سورة البقرة: "﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ أي: لفظا وحفظا وتحفيظا" تفسير السعدي ص 66.

والعرض الآخر: هو تحقيق الجانب الدعوي التربوي بإسماعهم آيات القرآن لوعظ قلوبهم والتأثير فيها، لاسيما وهي حاضرة ومقبلة على ما يتلى من القرآن، مع كمال في الاستماع والإنصات، مما يعين على تحصيل المقصود، وهذا يكشف لنا سرا من أسرار قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف: 20.

وأما العرض: فيستمع للمقرئ إلى تلاوة طلابه؛ لتقومها، وتصحيحها، وإجازتها. ويعبر عنه بالإقراء، بمعنى عرض القارئ قلوبته على الشيخ، وهو أمر مستقر عند العلماء، قال البخاري: "ويقرأ على المقرئ فيقول القارئ أقرأني فلان" صحيح البخاري 34/1. وروى الخطيب في الكفاية من طريق ابن وهب قال سمعت مالكا وسئل عن الكتب التي تعرض عليه يقول الرجل حدثني؟ قال: نعم، كذلك القرآن، أليس الرجل يقرأ على الرجل، فيقول أقرأني فلان. فتح الباري 149/1.

(2) انظر تفسير الطبري 87/3، والحرر الوجيز لابن عطية 212/1، وتفسير القرطبي 129/2، والتحرير والتنوير 704/1.

وذكر ابن القيم أن الحكمة هي السنة باتفاق السلف⁽¹⁾.

والذي يظهر أن المراد بالحكمة في الآيات الأربع يحتمل جميع ما قيل في تفسيرها، وأقواها دخولا في معنى الحكمة قول من قال بأنها السنة، وكذا قول من قال بأنها الفقه في الدين ومعرفة التأويل.

وأما التزكية فبمعنى إصلاح القلب والجوارح وتطهيرها؛ حتى تخضع لباريها.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : "﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِكَ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، قال: يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص"⁽²⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم، وهذا لا بد منه لكل مؤمن، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم، فالأول سمعهم والثاني طاعتهم، والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا، والأول علمهم والثاني عملهم والإيمان قول وعمل"⁽³⁾.

ويعني بالأول في الموضوعين سمعهم لما تلي عليهم من الآيات وعلمهم بها، ويعني بالثاني طاعتهم واستجابتهم لما اشتملت عليه من أوامر وهدايات.

والتزكية تعني أيضا التطهير من النقائص. وأكبر النقائص الشرك بالله، ثم ما يليه من الكبائر والقواحش.

قال السعدي في تفسير قوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ "أي يطهر أخلاقكم ونفوسكم؛ بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع،

(1) الروح ص 75.

(2) تفسير الطبري 606/1.

(3) مجموع الفتاوى 389/15.

ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية" اهـ⁽¹⁾.

النوع الثاني من الآيات الدالة على منهج الصحابة في تلقي القرآن:

هي تلك الآيات التي أمر الله فيها بتلاوة القرآن، أو مدح من يتلوه حق تلاوته، وهي كثيرة. وأكفي في هذا المقام تناول ثلاث منها، لعلها تفي بالغرض. بيد أنه من المهم هنا - وقبل الحديث عن هذه الآيات - أن أقف وقفة قصيرة عند لفظ التلاوة في القرآن ودلالاته.

فالتلاوة: مصدر تلا أي قرأ، ويكون بمعنى تبع.

قال الخليل: "تلا فلان القرآن يتلو تلاوة وتلا الشيء تبعه تلوا" (2).

ولعل الأصل في معنى تلا هو تبع، وليس قرأ، ويكون وجه إطلاق التلاوة على القراءة؛ لأن القارئ في قراءته كأنه يتبع الحروف والكلمات والجمل حرفاً حرفاً وكلمة كلمة وجملة جملة، أو لأن الآيات أو الكلمات أو الحروف يتلو بعضها بعضاً في الذكر⁽³⁾.

قال القرطبي: "وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل في القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتي على نسقه" (4).

وغلب استعمال لفظ التلاوة ومشتقاته في القرآن دون القراءة.

ولعل السبب في هذا عائد إلى أن التلاوة لفظ جامع، يتضمن معنيين متلازمين في أصله

اللغوي:

(1) تفسير السعدي 74/1.

(2) العين 134/8، مادة (تلا)، وانظر تهذيب اللغة للأزهري 225/14، مادة (تلا).

(3) انظر التحرير والتنوير 70/24.

(4) تفسير القرطبي 408/1.

المعنى الأول: تلاوة القرآن بمعنى اتباعه، وهذا هو الأصل في هذا الحرف، فأتلو القرآن، أو الوحي، أي: أتبع توجيهاته وإرشاداته، وأعمل بمقتضى أحكامه.

المعنى الثاني: تلاوة القرآن بمعنى قراءته، سواء كان مكتوباً أو محفوظاً، وهي تعني إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه؛ لأن معنى التبع متأصل في هذه الكلمة، ففعل (يتلو) أو (يتلى) أو (اتل) ونحوها مؤذن بأن المقروء كلام لا تبدل ألفاظه، وهو الوحي المنزل⁽¹⁾.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ما أوحى إليه قراءة مطابقة بهيئتها وكيفيتها وصفة أدائها لما سمعه من جبريل عليه السلام.

وأما التلازم بين معنيي التلاوة؛ فمن حيث إن تلاوة القرآن تعني قراءته واتباعه، أي: إقامته؛ بإقامة حروفه، وحدوده.

وبيان ذلك في الآيات الثلاث التالية:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَقَدْ أُوتِيَ كِتَابَهُمْ الْحَسْرَةَ﴾ البقرة: ١٢١.

جاء في تفسيرها⁽²⁾، عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وغير واحد من المفسرين أن معنى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: أي يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وفي لفظ قال: يتبعونه حق اتباعه.

(1) انظر التحرير والتوير 4879/30.

(2) انظر تفسير ابن أبي حاتم 218/1، وتفسير ابن كثير 403/1، والدر للشور 272/1.

ومن طريق أخرى قال ابن عباس: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: يتبعونه حق اتباعه. ورغم أن الآية قد جاءت ثناء على المؤمنين من أهل الكتاب الذين يتلون القرآن، فهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم، وهم المؤمنون حقا، لا من قال منهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ البقرة: ٩١^(١).

رغم ذلك، إلا أن مقصودها الأعظم هو الدلالة على أن منهج المؤمنين الكُمل في تلقي القرآن، أنهم يتلونه حق تلاوته؛ فيقيمون حروفه وحدوده، وهو برهان ساطع على صدق إيمانهم، وكمال استسلامهم لله تعالى.

وأجد من يدخل في مقصود هذه الآية دخولا أوليا هم الصحابة الأبرار. ويدل عليه ما رواه سعيد عن قتادة أن المراد بالآية هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

الآية الثانية: قول الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأُ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الْمَغْنَمِ تَتْلُو آيَاتِهِ خُفْوًا وَلِيُذَكَّرَ اللَّهُ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥.

فالتلاوة المأمور بها في هذه الآية ليست قراءة مجردة، بل المراد التقرب إلى الله بالمداومة على قراءة القرآن وحفظه وتدبره واتباع أحكامه وهداياته. قال البيضاوي: "﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: تقربا إلى الله تعالى بقراءته، وتحفظا لألفاظه، واستكشافا لمعانيه؛ فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه"^(٣).

(1) انظر تفسير السعدي ص 65.

(2) انظر تفسير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم 218/1، وتفسير ابن كثير 403/1، والدر المنثور 272/1.

(3) تفسير البيضاوي 318/4.

وقال أبو السعود: "أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته، فقال: ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾" (1).

ويقول السعدي عند تفسيره لهذه الآية: "ومعنى تلاوته: اتباعه؛ بانتقال ما يأمر به، واجتباب ما ينهى عنه، والاهتمام بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه؛ فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه. وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ علم أن إقامة الدين كلها داخلة في تلاوة الكتاب؛ فيكون قوله: ﴿وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة، وشرفها، وآثارها الجميلة" اهـ (2).

فقوله: ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ في هذه الآية كسابقته، معناه أقرأ القرآن واتبع ما فيه من أحكام.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ فاطر: ٢٩.

هذه الآية هي آية القراء العاملين العالمين. قال قتادة: "كان مطرف بن عبد الله رحمه الله إذا قرأ هذه الآية؛ يقول: هذه آية القراء" (3). وقال القرطبي: "هذه آية القراء العاملين العالمين، الذين يقيمون الصلاة: الفرض، والنفل، وكذا في الإنفاق" (4).

والآية تؤكد منهج المؤمنين في تلاوة القرآن، وتزيد في بيانه بالإشارة إلى أن من يتلو القرآن حق تلاوته لا بد وأن تظهر فيه ثلاث صفات كبار، دالة على صدقه في تلاوة الكتاب حق تلاوته،

(1) تفسير أبي السعود 218/5.

(2) تفسير السعدي ص 632.

(3) تفسير الطبري 464/20، وتفسير ابن كثير 545/6.

(4) تفسير القرطبي 345/14.

وهي إقامة الصلاة، وبها تقوم صلة العباد بربهم، وبها صلاح القلب والجوارح، وهي العبادة البدنية التي لا حظ في الإسلام لمن تركها.

الإنفاق في جميع الوجوه والأحوال، وبه تقوم صلة العباد فيما بينهم وتصلح، وهو برهان الإيمان. وأدنى درجات الإنفاق إيتاء الزكاة التي هي حق المال، وهي العبادة المالية التي عاقب الله تاركها بإيقاع النفاق في قلوبهم، ومن أجلها قاتل أبو بكر مانعيها، عند قتاله المرتدين.

حسن القصد في تلاوتهم وصلاتهم وإنفاقهم وسائر أعمالهم، وهو دليل على صدق التوحيد وكماله، ومدار قبول العمل منوط بتحقيقه.

قال الإمام السعدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقلمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضا ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعد ما عم الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والندور والصدقات، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، في جميع الأوقات.

﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿بِحَبْرَةٍ لَّنْ تَكْبُورَ﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئا⁽¹⁾.

ومما يؤكد أن تلاوة القرآن تعني اتباعه في حروفه وحدوده ما جاء من آيات كثيرة تأمر باتباع الوحي، كتوله عز وجل: ﴿اتَّبِعْ مَا وَحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ أَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام:

(1) تفسير السعدي ص 689.

١٠٦، وقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا لِنُنذِرَكُمْ وَلَا تُنْفِرُوا مِنْ دُونِهِ بِأَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَلَاذِكْرُونَ﴾ الأعراف: ٣، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ يس: ١١ .

قال قتادة: اتباع الذكر: اتباع القرآن^(١).

وهذا يقودنا إلى معلم كبير من معالم منهج الصحابة في تلقي القرآن، هو نتيجة حتمية لكمال اتباعهم واستسلامهم لتوجيهات الوحي؛ لأن لفظ الاتباع يعني الانقياد لتوجيهات المتبوع. فلما كان اتباع الصحابة للقرآن قد تحقق على الوجه الأكمل؛ لما كانت عليه نفوسهم - في إقبالها على القرآن - من الإخلاص والتجرد من حظوظ النفس والهوى؛ حصل منهم الامتثال التام لأحكامه وهداياته، دون حرج أو تردد.

وعليه، فلا يمكن أن تجد في الصحابة من يتلقى القرآن بمقررات سابقة، كصنيع أهل البدع الذين كانوا يلوون أعناق النصوص، ويجنحون إلى تأويلها؛ لتوافق مذاهيمهم وأهواءهم.

وهذا - والله أعلم - ما حمل شيخ الإسلام ابن تيمية على تقرير أن الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وأن خلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد^(٢).

وقبل أن أختتم الحديث عن هذا المعلم المهم أنبه إلى أن من أعظم أسباب نجاح الصحابة في سلوك ولزوم هذا المنهج في تلقي القرآن سببين:

السبب الأول: أنهم كانوا على الدوام يأخذون القرآن بقوة وعزيمة صادقة، امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿خُذُوا مَاءَ آتِنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٦٣ .

(١) انظر تفسير الطبري 496/20.

(٢) مجموع الفتاوى 333/13.

قال الطبري: "ويعني بقوله: يَقْوَى: بجد في تأدية ما أمركم فيه وافترض عليكم" اهـ⁽¹⁾. ومعنى قوله: وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ، أي: احفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه⁽²⁾. ولا ريب أن الصحابة معيون بهذا الخطاب؛ فالآية وإن كانت في بني إسرائيل ونكوصهم عن أخذ التوراة بجد وعزيمة - إلا أنها جاءت في سياق التحذير من التشبه بهم في مثل هذه الصفات. وقد تكرر مثل هذا الأمر في غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَنبَغِي حِينَئِذٍ أَنْ تَكْتُبَ بِقَوْلِهِ﴾ مريم: ١٢. أي: بجد وحرص واجتهاد⁽³⁾. وهذا يدل على أن الحال التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في تلقيه لعهود الله وفرائضه هي: العظيم لها، وأخذها بحرص شديد وهمة عالية.

السبب الثاني: أنهم كانوا يتلقون القرآن بنفوس محبة ومعظمة له. فهم على كل حال أهل إخبار وخشوع وخشوع عند سماعهم القرآن. كما قال تعالى في وصف المؤمنين الكمال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الأنفال: ٢. فمحبتهم للقرآن، واستبشارهم به، وإقبالهم على تلاوته وسماعه والنفقه فيه والعمل به - صفات مكينة لا تفارقهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون﴾ التوبة: ١٢٤.

(1) تفسير الطبري 161/2. ونقل الطبري في الموضع نفسه عن السدي أنه قال: (يقوى)، يعني: بجد واجتهاد.

(2) تفسير الرزي 115/3.

(3) انظر تفسير الطبري 155/18، وتفسير ابن كثير 216/5.

فبين تعالى الحال الواقعة للمؤمنين بأنهم يزدادون إيماناً: بعلمهم بهذه السورة من القرآن، وفهمها، واعتقادها، والعمل بها. وهم على الدوام يُسْرُونَ بسماع القرآن وتلاوته وحفظه، ويشرب بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهو دليل على: انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه⁽¹⁾.

المعلم الرابع

الفهم الصحيح للقرآن مبناه على الفقه في الدين

القرآن هو أصل الدين وأسه الذي يقوم عليه، والسنة مبنية ومفصلة له. والفهم الأمثل للقرآن لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا لمن حاز الفقه في أصول الدين وفروعه. وكلما كانت قدمه في العلم الشرعي، في كافة أبوابه أمكن وأرسخ؛ كان فهمه للقرآن أوعب وأصوب.

والأصل في هذا المعلم: آية، وحديث:

أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا الْأَوْلُوَاءُ الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧.

فدلّت هذه الآية الكريمة⁽²⁾ على أن آيات القرآن قسمان:

(1) انظر تفسير السعدي ص 356.

(2) انظر تفسير هذه الآية في: تفسير الطبري 169/6، وتفسير ابن كثير 6/2، وجموع الفتاوى لابن تيمية 393/17،

ولمواظقات للشاطبي 86/3، وتفسير السعدي ص 122.

الأول: **ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ**، هن أكثر القرآن. ومعنى محكمات: أي واضحات الدلالة، ليس فيهن لبس، **هُنَّ أَمْ الْكُتُبِ** أي: هن أصله المحكم، الذي يرجع إليه كل متشابه، وهن أيضا معظم الكتاب وعامته. فأم الشيء يطلق على معظم الشيء وعامته، ويطلق على أصله (1).
والقسم الثاني **مُتَشَابِهَاتٌ** أي: مجملة، يلتبس معناها، ويخفى على من كانت بضاعته في العلم مزجاة.

وأهل العلم والمتسبون إليه حيال هذا القسم من الآيات فريقان:

الأول: **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَرِيْعٌ**، أي: ميل عن الاستقامة؛ لانحراف قلوبهم، وفساد مقاصدهم؛ فهم يتبعون المتشابه، ويدعون المحكم، فيعكسون: يتركون المحكم الجلي، ويحملونه على المتشابه الخفي: **بِتَّبَعَاءِ الْفِتْنَةِ** لمن يدعونهم لقولهم؛ إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، **وَابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ**، أي: تحريفه على ما يريدون.

وكان الواجب في هذا أن يردوا المتشابه إلى المحكم؛ لأن القرآن منزه عن الاختلاف والتناقض، بل يصدق بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض، كما تقدم (2).

الفريق الثاني: هم الراسخون في العلم، الذين يعلمون تفسير جميع آي القرآن. وما تشابه منها؛ فهم يؤمنون به، ويكفون علمه إلى الله تعالى.

ويبان ذلك أن قوله: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**: إن أريد بالتأويل علم حقيقة الشيء وكنهه، فالصواب الوقوف على قوله: **إِلَّا اللَّهُ**؛ لأن المتشابه هو ما استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، كحقائق

(1) انظر تفسير هذه الآية في: تفسير الطبري 170/6، وللواقعات للشاطبي 86/3.

(2) انظر ص 22.

صفات الله وكيفيةها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر، ونحو ذلك. فهذه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها، ويكفون حقيقتها وكهها إلى الله تعالى؛ فَيَسْأَلُونَ وَيَسْأَلُونَ.

وإن أريد بالتأويل التفسير والبيان؛ فالصواب عطف قوله: وَالرَّاسِخُونَ عَلَى قَوْلِهِ: اللَّهُ، ويكون المعنى: أن تفسير المتشابه، وردده إلى المحكم، وإزالة ما فيه من الشبهة - لا يعلمه إلا الله تعالى. والراسخون في العلم يعلمونه أيضا؛ فيؤمنون به، ويردونه إلى المحكم، ويقولون: كُلٌّ مِنَ الْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض.

ويكون الغرض من عطف قوله: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ عَلَى قَوْلِهِ: وَمَا يَكْتُمُونَ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ هو من باب التشريف والتكريم للراسخين، كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ آل عمران: ١٨⁽¹⁾.

وفيه أيضا إشارة إلى أن ما نالوه من رسوخ في العلم إنما هو بفضل الله تعالى ورحمته. وبدل عليه دعاؤهم الخاشع في الآية التي تلت هذه الآية، وهي قوله تعالى على لسانهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران: ٨⁽²⁾. فاعترفوا لربهم بأن هدايته لهم منة منه، وسألوه الثبات والمزيد من فضله وألطافه. وتخصيص الراسخين في العلم بالذكر؛ يعلم منه أنهم امتازوا بعلم تأويله، فعلموه؛ لرسوخهم بالعلم، وآمنوا به؛ لأنهم يؤمنون. ولا ريب أن إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف.

(1) انظر التحرير والتنوير 24/3.

(2) انظر تفسير الطبري 211/6.

ولو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخص الراسخين، بل قال: والمؤمنون يقولون: آمنا به؛ فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَنْ كُنَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ النساء: ١٦٢.

ولهذا قال عقيب ذلك: وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ، فدل على أن أولي الأبواب مخصصون بالتذكر^(١). والمراد بهم أولو العلم؛ لأن العقل والعلم مترادفان^(٢).

ولهذا قال ابن كثير في تفسيرها: "أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة" اهـ^(٣).

ولا عجب أن يكون الراسخون في العلم بهذه المنزلة الرفيعة. ومن عرف صفاتهم؛ أيقن بأنهم أهل لهذا الشرف.

فمن المراد بالراسخين في العلم المذكورين في الآية؟

قال أبو جعفر الطبري: "يعني بالراسخين في العلم العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووعّوه، فحفظوه حفظاً، لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شك ولا لبس. وأصل ذلك من رسوخ الشيء في الشيء، وهو ثبوته وولوجه فيه. يقال منه: رسخ الإيمان في قلب فلان، فهو يَرَسُخُ رَسْخًا ورُسُوخًا" اهـ^(٤).

وسئل الإمام مالك عن تفسير قوله: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، من هم؟

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية 393/17.

(٢) التحرير والتنوير 37/24.

(٣) تفسير ابن كثير 12/2.

(٤) تفسير الطبري 206/6.

قال: العالم العامل بما علم تبع له⁽¹⁾.

وقد دلت هذه الآية الكريمة نفسها على ما ذكره مالك وزادت عليه.

فإن لفظ الراسخين في الآية يدل على التمكن والثبات، كما قال الطبري، كما أن لفظ العلم

يأتي على عدة معان:

فيأتي بمعنى الفقه والفهم⁽²⁾. ومنه قوله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

أَشُدَّهُ وَءَايَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يوسف: ٢٢.

قال البغوي: "فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين"⁽³⁾.

ويأتي العلم بمعنى اليقين⁽⁴⁾. كما قال عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

محمد: ١٩⁽⁵⁾.

وكذلك العكس، يطلق اليقين على العلم التام، المصحوب بالعمل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ نَأْمُرُكَ بِأَنْ تَصْبِرِي وَأَوْكُنُوهُنَّ يُتَيَقِنُونَ﴾ السجدة: ٢٤.

قال السعدي: "أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله، إلى درجة اليقين، وهو العلم التام،

الموجب للعمل. وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن

أدلتها المفيدة لليقين" اه⁽⁶⁾.

(1) الكشف والبيان للعلبي 16/3.

(2) انظر تحذيب اللغة للأزهري مادة (فقه) 404/5، ولسان العرب 532/13 مادة (فقه).

(3) تفسير البغوي 226/4.

(4) انظر التعريفات للحرجاني ص 332، ولسان العرب 457/13، وشرح الكوكب للمير لابن النجار 63/1.

(5) انظر أوضح المسالك لابن هشام 41/2.

(6) تفسير السعدي ص 656.

وهذا المعنى مقصود في آية آل عمران، ولهذا جاء ذكر الراسخين في العلم في مقابل من زاغت قلوبهم وفسدت مقاصدهم، مما يدل على أن الراسخين بخلاف ذلك، بل هم أهل اليقين والإخلاص.

كما أن العلم الصحيح هو الموجب للعمل، كما أشارت إليه الآية السابقة.

ويدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ أَنَا أَلَيْلٍ سَاجِدٌ لَوْ أَنَّمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَبِرَّحْمَتِي عَلَيْهِ قَلَّ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.

وقد دل الاستفهام في آخر الآية على أن الحامل على الخوف والرجاء والعمل الصالح إنما هو العلم النافع، وأهله هم العلماء.

قال صاحب الكشاف: "وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة. كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدياء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون، ويقتنون فيها، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة؛ حيث جعل القاتنين هم العلماء" اهـ (1).

وأيضاً العلم الصحيح هو المورث للخشية، كما دلت عليه آية الزمر الآتية.

بل دلت عليه آية آل عمران؛ فإن الله تعالى في الآية التي تلتها حكى لنا حال الراسخين في العلم مع ربهم، وشدة خشيتهم له، وتضرعهم إليه بأن يثبت قلوبهم، فقال عز شأنه: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ آل عمران: ٨.

فحصل مما سبق أن الراسخين في العلم هم العلماء العاملون، أبواب الخشية واليقين.

(1) الكشاف 117/4.

وهم الربانيون المعنيون في قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نَبِيًّا كَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾ والرَّبَّانِيُّونَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿آل عمران: ٧٩﴾.

جاء في تفسير قوله: ﴿رَبَّانِيًّا﴾⁽¹⁾ عدة روايات عن ابن عباس وغيره. ومجموعها يدل على أن الربانيين هم: هم العلماء الحكماء العباد الأتقياء. والربانيون: جمع رباني، منسوب إلى الرب، وأصله ربي، فريدت فيه الألف والنون للتأكيد والمبالغة في النسبة⁽²⁾.

وقال سيويه: "زادوا ألفا ونونا في الرباني إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب دون غيره كأن معناه صاحب علم بالرب دون غيره من العلوم وهو كما يقال رجل شعراني ولحياني ورباني إذا خص بكثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقية"⁽³⁾.

وقال البغوي: "﴿كُونُوا رَبَّانِيًّا﴾: تدينون لربكم، من الربوية، كان في الأصل ربي، فأدخلت الألف للتفخيم ثم أدخلت النون لسكون الألف كما قيل صنعاني وبهراني"⁽⁴⁾.
وقيل: الرباني منسوب إلى الريان أو إلى الرب وهو المصدر، بمعنى الترية.

قال المبرد: "الربانيون هم أرباب العلم، سموا به؛ لأنهم يربون العلم ويقومون به، ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها، وكل من قام بإصلاح الشيء واتمامه فقد ربه يربه، واحدها ربان، كما قالوا ربان وعطشان وشبعان، ثم ضمت إليه ياء النسبة، كما يقال: لحياني ورباني"⁽⁵⁾.

(1) انظر تفسير الطبري 540/6، وتفسير ابن أبي حاتم 691/2، والدر المنثور 250/2، وتفسير البغوي 60/2.

(2) انظر معاني القرآن للنحاس 428/1، وعمدة القاري للعيني 43/2.

(3) لسان العرب 403/1.

(4) تفسير البغوي 60/2.

(5) نقلا عن تفسير البغوي 60/2، وانظر تفسير الثعلبي 102/3، والمفردات للراغب ص 184.

وقال ابن الأعرابي: "الرباني العالم المعلم الذي يغدو الناس بصغار العلم قبل كبارها" اه⁽¹⁾.
 وأورد البخاري هذا القول، ولم ينسبه لأحد⁽²⁾.
 وشرحه العيني فقال: "وهو من التربية، أي الذي يربي الناس بجزئيات العلم قبل كلياته أو بفروعه قبل أصوله أو بمقدماته قبل مقاصده" اه⁽³⁾.
 وبناء على هذا الأصل فسر ابن زيد الربانيين، فذكر أنهم ولاة الأمر الذين يربون الناس، ويلونهم"، وقرأ: ﴿لَوْلَايَتِهِمْ لَتَبَدَّلَ اللَّهُ الْخَبْرَ وَالْآخِبَارُ﴾ المائدة: ٦٣، قال: "الربانيون: الولاة، والأخبار: العلماء"، وظاهر كلام الطبري ترجيح هذا القول⁽⁴⁾.
 وبناء على هذا الأصل أيضا روي عن مجاهد أنه قال: "الربانيون فوق الأخبار، فالأخبار العلماء، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصيرة بسياسة الناس"⁽⁵⁾.
 والمتأمل في الأقوال السابقة على كثرتها يلحظ أنها معان متنوعة، ولكن ليس بينها تضاد، وتحتملها كلمة: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا مِنْ كَلِمَاتِكَ الْحِكْمَةَ﴾، فهي من الكلمات الجامعة التي تحكي طرفا من إعجاز القرآن وبلاغته، وعليه يمكن القول بأن المراد بالربانيين في الآية -والله أعلم- هم العلماء الحكماء العباد الأتقياء الذين يعلمون الناس ويربونهم بصغار العلم قبل كبارها⁽⁶⁾.

(1) لسان العرب 404/1.

(2) صحيح البخاري 37/1.

(3) عمدة القاري 43/2.

(4) انظر تفسير الطبري 543/6، والدر المنثور 250/2.

(5) انظر تفسير الطبري 540/6، وتفسير السمعاني 336/1.

(6) انظر المحرر الوجيز لابن عطية 463/1.

وهذا ما صنعه السعدي عند تفسيرها حيث قال: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك " اه (1).

ولا ريب أن الراسخين في العلم هم الأسعد بهذه الأوصاف.

وقد دلت الآية على أن الربانيين بلغوا هذه المنزلة لسببين:

الأول: قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ﴾.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾: فيها قراءتان: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: "تُعَلِّمُونَ"، بسكون العين وتخفيف اللام، من العلم، أي تفهمون، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ مثقلاً بضم التاء وكسر اللام، من التعليم (2).

وهذا يدل على أن الربانيين يعلمون آيات القرآن ويفهمونها، ويعلمونها غيرهم؛ فهم أهل العلم حقاً، وهم الأجدر في هداية الناس وتعليمهم الخير.

والسبب الثاني: قوله: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وقوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾: فسره مقاتل بن سليمان بـ "تقرعون" (3)، وكذا قال الطبري والبخاري، وغير واحد (4).

(1) تفسير السعدي ص 136.

(2) انظر السبعة في القراءات لابن مجاهد ص 213، وتفسير البخاري 321/1، والحرر الوجيز لابن عطية 463/1، وتفسير ابن كثير 66/2.

(3) تفسير مقاتل 178/1.

(4) انظر تفسير الطبري 546/6، ولكشف البيان للتعلي 103/3، وتفسير البخاري 60/2.

والأظهر أنها ليست قراءة مجردة فحسب، بل قراءة بفهم وإعادة وتكرير⁽¹⁾.

وقرأ سعيد بن جبير بالتشديد: "تُدْرَسُونَ" من التدريس، وروي أن أبا حيوه قرأ بها⁽²⁾. وهي

تؤكد قوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ على قراءة التشديد.

ومن الآيات الدالة على أن العلماء الراسخين يفهمون آيات القرآن ولا يخفى عليهم تفسيرها

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ

الْمُبْطِلُونَ﴾^(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٨ - ٤٩.

قال السعدي: "أي: بل هذا القرآن آياتٌ بيِّناتٌ، لا خفيات، في صدور الذين أُوتوا

العلم، وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكمّل منهم" اه⁽³⁾.

والراسخون في العلم هم ورثة الأنبياء؛ لما آتاهم الله تعالى بمنه وكرمه من الحكمة.

قال تبارك وتعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ

خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة: ٢٦٩.

(1) وهنا ما ذهب إليه ابن عاشور؛ باعتبار أصل "درس" في اللغة، ومنه: درس الكتاب إذا قرأه بتمهل لحفظه أو للتدريس،

واستدل بحديث أبي هريرة، وفيه: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم) رواه مسلم

(1)، حيث عطف التدارس على القرية، فعلم أن الدراسة أخص من القرية، وقال أيضا: إن مادة "درس" تستلزم التمكن

من لفعل فلذلك صار درس الكتاب مجازا في فهمه وإتقانه، ولذلك عطف في هذه الآية قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ

تَدْرُسُونَ﴾ على قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ﴾. انظر التحرير والتوير 777/3.

(2) الكشف والبيان 103/3، والخرر الوجيز 463/1.

(3) تفسير السعدي ص 633.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: الحكمة يعني المعرفة بالقرآن،
ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله⁽¹⁾.
وأخرج ابن مردويه بإسناد ضعيف عن جُوَيْرٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما
مرفوعاً: الحكمة: القرآن. يعني: تفسيره. قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البر والفاجر.
وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ لَيْسَتْ بِالنَّبْوَةِ، ولكنه
العلم والفقهِ والقرآن.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعاً: "رأس الحكمة مخافة الله".

وقال أبو العالية عن ابن مسعود: الحكمة: الكتاب والفهم.

وقال إبراهيم النخعي: الحكمة: الفهم.

وقال مالك: وإنه يقع في قلبي أن الحكمة: الفقه في دين الله، وأمرٌ يدخله الله في القلوب
من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر
ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين
الله.

وقال السدي: الحكمة: النبوة.

(1) انظر هذا القول وتبعية الأقوال في تفسير الحكمة في تفسير الطبري 78/3، وتفسير البغوي 334/1، وتفسير ابن كثير

ورجح الإمام الطبري أن الحكمة هي العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها مأخوذة من "الحكم" بمعنى الفصل بين الحق والباطل، يقال منه: "إن فلانا لحكيم بين الحكمة"، أي: إنه لبين الإصابة في القول والفعل. وذكر رحمه الله أن جميع ما قيل في تفسير الحكمة داخل في هذا القول؛ لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة. وأن من كان كذلك كان مفهما خاشيا لله فقيها عالما. وذكر أن النبوة بعض معاني الحكمة⁽¹⁾.

وقال الحافظ ابن كثير: "والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية، كما جاء في بعض الأحاديث: (من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كفيه غير أنه لا يوحى إليه)⁽²⁾ اهـ⁽³⁾.

وقال السعدي: "الحكمة، هي: العلم النافع، والعمل الصالح، ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها" اهـ⁽⁴⁾.

(1) انظر تفسير الطبري 78/3، 579/5.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 738/1 - حديث رقم 2028، وقال: هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في الشعب 522/2 - حديث رقم 2591. ورواه موقوفا على عمرو بن العاص رضي الله عنه أبو عبيد في فضائل القرآن ص 53، رقم الأثر 8-9، وابن المبارك في الزهد ص 275، رقم الأثر 799، وابن أبي شبة في المصنف 120/6، رقم الأثر 29953، والبيهقي في الشعب 522/2، رقم الأثر 2590. وقد ضعف الألباني هذا الحديث وقال: لعل الصواب وقفه على عمرو رضي الله عنه. انظر السلسلة الضعيفة 220/11 - حديث رقم 5118.

(3) تفسير ابن كثير 701/1.

(4) تفسير السعدي ص 115.

وقال أيضا: "فكمال العبد متوقف على الحكمة؛ إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية؛ فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره"⁽¹⁾.
وقال ابن عاشور: "الحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم"⁽²⁾.
فبين من مجموع هذه الأقوال - التي قيلت في تفسير الحكمة - أن المراد بمن أوتي الحكمة: هو من آتاه الله ميراث الأنبياء؛ فمنَّ عليه بإتقان العلم، والفقهِ في دين الله، وعلم تأويل القرآن، وأتبعه بالعمل؛ فأورثه ذلك إخبارًا، وخشية لله تعالى.
ولهذا لما جمعت الحكمة كل هذه المعاني الشريفة؛ قال تعالى في الآية نفسها: وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وهذا مطابق لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) منفق عليه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما⁽³⁾.
فتكبير قوله: خَيْرًا؛ للتكثير والتعظيم⁽⁴⁾. وأعظم هذا الخير هو تحصيل رضوان الله تعالى ودخول الجنة؛ لأن من بركات الفقه في الدين أنه يقود إلى تقوى الله تعالى ومراضاته والجنة⁽⁵⁾.

(1) للمصدر السابق ص 115.

(2) التحرير والتنوير 531/2.

(3) صحيح البخاري 39/1 - كتاب العلم - باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين - حديث رقم 71، وصحيح مسلم 94/3 - كتاب الزكاة - باب النهي عن المسألة - حديث رقم 2436.

(4) انظر فيض القدير للمناوي 242/6.

(5) انظر شرح النووي على صحيح مسلم 128/7.

ولا ريب أن هذه الصفات والمعاني - التي دل عليها لفظ الحكمة - لا تجتمع إلا للراسخين في العلم، ولهذا ختمت هذه الآية والآية السابعة من آل عمران بخاتمة واحدة، وهي قوله تعالى: وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ.

وهذا يشير إلى أن الراسخين في العلم، الذين آتاهم الله الحكمة - هم أهل العقول حقا⁽¹⁾. وبهذا صارت الحكمة من أعظم ما يغبط عليه المؤمن.

(1) ومن تأمل في كتاب الله عز وجل يلحظ أن هذه الصفة - أُولُو الْأَلْبَابِ - قد اختص بها أهل العلم، الراسخون فيه، في مواضع كثيرة من القرآن:

منها آية البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة: ٢٦٩

ومنها الآية السابعة من آل عمران، وهي الآية التي معنا، ختمت بقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧.

ومنها آية العلماء الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض في آخر سورة آل عمران أيضا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ١٩٠.

ومنها: آية تدبر القرآن في سورة ص، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبْرٍ وَأَعْيُنٍ لِّرُؤْيَا وَلِيُنذَرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩.

ومنها: آية أهل العلم والعمل - كما قال السعدي - في سورة الرعد، قال عز شأنه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ يَلْمِزُكَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد: ١٩.

ومنها آية العلماء العالين في سورة الزمر، قال عز وجل: ﴿أَمْ نَحْنُ هُوقُنُوتٌ أَمْ نَأْتِي الْبِلْسَامَ لَوْ قَائِمًا يَبْعَثُ دُرًّا لَّاخِرَةَ وَرِجْوَاهُ حَمْرٌ يَبِيضُ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.

وهذه النصوص تدل دلالة لا مرية فيها أن أجدر الناس بوصف أولي الأبواب هم الراسخون في العلم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَىٰ هَلَكَيْتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) متفق عليه⁽¹⁾. ومعنى لا حسد، أي: لا غبطة⁽²⁾.

وقد جاء تفسير الحكمة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَصَدَّقَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ) متفق عليه⁽³⁾.

وعند الإمام أحمد⁽⁴⁾، والطبراني في الكبير⁽⁵⁾، من حديث يزيد بن الأختس السلمي رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَنَافَسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتَّقُوهُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ) الحديث.

فبين أن المراد بالحكمة في حديث ابن مسعود هو: القيام بالقرآن، حق القيام: علما، وفهما، وعملا، قياما مبينا على الرسوخ في العلم، والفقهاء التام لدين الله تعالى. وخالصة ما تقدم: أن الراسخين في العلم قد خُصوا بفهم جميع القرآن: محكمه، ومتشابهه. وما ذاك؛ إلا لأن رسوخهم كان شاملا للعلم والإيمان والعمل والخشية.

(1) صحيح البخاري 39/1 - كتاب العلم - باب الاغتباط في العلم والحكمة - حديث رقم 73، وصحيح مسلم 201/2 - كتاب صلاة للسافرين - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقهه أو غيره فعمل بها وعلمها - حديث رقم 1933.

(2) انظر شرح النووي على صحيح مسلم 97/6.

(3) صحيح البخاري 1919/4 - كتاب فضائل القرآن - باب اغتباط صاحب القرآن - حديث رقم 4737، وصحيح مسلم 201/2 - كتاب صلاة للسافرين - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقهه أو غيره فعمل بها وعلمها - حديث رقم 1931.

(4) للسند 167/28 - حديث رقم 16966.

(5) للمعجم الكبير 239/22 - حديث رقم 18478. قال الهيثمي في مجمع الزوائد 303/2، عند الحديث رقم 3544: "رواه الطبراني في الكبير ورواه ثقات". وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب 154/1 - حديث رقم 636.

وعلى رأس هؤلاء الراسخين: علماء الصحابة رضوان الله عليهم.
وكان منهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان يقول: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة
من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدا
أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه. متفق عليه⁽¹⁾.
وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنا من
الراسخين الذين يعلمون تأويله⁽²⁾.
وحق له أن يقول ذلك، وهو الحبر البحر، ترجمان القرآن؛ بركة دعاء رسول الله صلى الله
عليه وسلم له حيث قال: (اللَّهُمَّ فَفِّهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ)⁽³⁾.
وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، ثلاث عرضات، أفقه
عند كل آية⁽⁴⁾.
وإذا تقرر أن الراسخين في العلم إنما فهموا آيات القرآن على الوجه الصحيح؛ بسبب ما
بلغوه من رسوخ في جميع علوم الشريعة، أصولها وفروعها؛ فالنتيجة التي ينتهي إليها أن الفقه
الصحيح التام للقرآن مبناه على الرسوخ في جميع علوم الشريعة.

(1) صحيح البخاري 1912/4 - كتاب فضائل القرآن - باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم - رقم الأثر 4716، وصحيح مسلم 148/7 - كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى
عنهما - رقم الأثر 6487. وأخرجه ابن أبي داود في للمصاحف ص 60، والطبراني في الكبير 73/9.
(2) تفسير ابن كثير 11/2، والدر المنثور 153/2.
(3) يأتي تخريجه بعد عدة أسطر.
(4) مصنف ابن أبي شيبة 203/7، ورواه الحاكم في المستدرک 307/2.

وأما الحديث الذي يشهد لهذا المعلم فهو: ما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءًا مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَتْ لَهُ مَيْمُونَةُ وَضَعْ لَكَ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ فَفَهِّهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ) (1).

وعند ابن ماجة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمنني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وقال: (اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ وَتَأْوِيلَ الْكِتَابِ) (2).

والحكمة هي الفقه في الدين والرسوخ فيه، كما تعلم.

ووجه الدلالة في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس رضي الله عنهما قد

دعا له بأمرين:

الأول: الفقه في الدين، ومعناه العلم بأصول الشريعة وفروعها، ومعرفة أسرارها ومقاصدها.

الثاني: العلم بالتأويل، والمراد به: العلم بتفسير القرآن، والفهم لآياته على الوجه الصحيح.

قال الطاهر ابن عاشور: " اتفق العلماء على أن المراد بالتأويل تأويل القرآن " اهـ (3).

وكأن هذا الترتيب منه صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى مبناه

على الفقه في الدين.

ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول عن نفسه: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، كما

تعلم (4).

فأشار رضي الله عنه إلى أن رسوخه في العلم هو الذي يمكنه من معرفة تأويل المتشابه.

(1) للسند 215/5، حديث رقم 3102. قال الأرنؤوط في تعليقه على للسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(2) سنن ابن ماجة 58/1 - باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فضل ابن عباس - حديث رقم

166. وصححه الألباني في تعليقه على سنن ابن ماجة.

(3) التحزيز والتتوير 27/1.

(4) انظر ص 39.

يبد أنه من المهم هنا التبيه إلى أمرين، هما من أعظم لوازم الفقه في الدين؛ كي يثمر ثمرته المرجوة:

الأول: أن يكون الفقه في الدين من أجل العمل وملازمًا له.

الثاني: السعي في تعليم الناس هذا الفقه ونشره في الأنام.

ويشهد لهذا المعنى قوله عز وجل: ﴿ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ لَكُمْ لِيَكْفِيَ عَنْكُمْ غِزْيَ اللَّهِ فَذُرُّهُ وَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَمِيزُ النَّاسَ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ الرعد: ١٧.

ففي هذه الآية الكريمة⁽¹⁾ شبه تعالى العلم والهدى الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لحياة القلوب والأرواح - بالماء الذي أنزله لحياة الأدميين. وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير، الذي لا غنى لأحد عنه - بما في المطر من النفع العام الضروري.

وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيرا، كقلب كبير يسع علما كثيرا، وواد صغير يأخذ ماء قليلا كقلب صغير، يسع علما قليلا وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها - بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية، التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء، طافية مكدرة له؛ حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس: من الماء الصافي، والحلية الخالصة. كذلك الشبهات والشهوات، لا يزال القلب - بما فيه من علم وإيمان - يكرهها، ويدفعها، بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة؛ حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصا صافيا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس، من الإيمان، والعلم بالحق، وإيتاره، والدعوة إليه.

(1) انظر معنى هذه الآية في مجموع الفتاوى لابن تيمية 766/10، ومفتاح دار السعادة لابن القيم 61/1، وتفسير السعدي ص

ولهذا قال عز وجل: **وَأَمَّا مَلِنَعُمُ النَّاسِ فَيَمْكُكُ فِي الْأَرْضِ**.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبين معنى هذه الآية ويجليه.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قِيلَتْ الْمَاءُ فَأَنْبَتَ الْكُلَّ وَالْغُثْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فُقِّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) متفق عليه (1).

فشبهه صلى الله عليه وسلم (2) العلم الذي جاء به بالغيث؛ لأن كلا منهما سبب الحياة؛ فبالغيث حياة الأبدان، وبالعلم حياة القلوب.

وشبه القلوب بالأودية، فبعضها صغير وبعضها كبير، وكذلك القلوب في حملها للعلم. كما أن الأرضين بالنسبة إلى قبول الغيث على ثلاثة أقسام:

أحدها: أرض زكية تقبل الغيث، وتنتب به من كل زوج بهيج.

فذلك مثل القلب الزكي الذكي؛ فهو يقبل العلم، ويفقه فيه. فهو عالم عامل مُعَلِّمٌ، وداع إلى الله على بصيرة، فهذا من ورتة الرسل، الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله عز وجل. وهذا هو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام: (فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فُقِّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ).

(1) صحيح البخاري 42/1 - كتاب العلم - باب فضل من علم وعلم - حديث رقم 79، وصحيح مسلم 63/7 -

كتاب الفضائل - بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلوم - حديث رقم 6093.

(2) انظر شرح هذا المثل النبوي في زاد للمهاجر لابن القيم ص 55.

والقسم الثاني: أرض صلبة، تمسك ما عليها من الماء وتحفظه؛ فينتفع الناس به، ويسقون، ويزرعون.

وهذا مثل للقلب الحافظ للعلم، فهو يحفظه كما سمعه، ولا قدرة له على الاستبطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، مينا هذين القسمين: "ومن المستقر في أذهان المسلمين: أن ورة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء؛ فأثبتت الكلاً والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكى الناس بها. وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة؛ ولذلك كانوا ورة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا نَاثِرًا يَبِيحُ وَيَسْحَقُ وَيَعْتُوبُ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ص: ٤٥، فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقهاء في الدين والبصر والتأويل؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستتبتت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه⁽¹⁾.

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلاً والعشب الذي أنبتته الأرض الطيبة. وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية، وهي التي حفظت النصوص، فكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس

(1) رواه البخاري في صحيحه 1110/3 - كتاب الجهاد والسير - باب فكك الأسير - رقم الأثر 2882. وسبب السؤال أن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت، لاسيما علياً أشياء من الوحي خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بما لم يطلع غيرهم عليها. أفاده ابن حجر في الفتح 204/1.

وتلقوها بالقبول، واستبتوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها، وبنذروها في أرض قابلة للزراع والنبات، ورووها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ البقرة: ٦٠.

وهؤلاء الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: (نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، ثم أداها كما سمعها، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ وَلَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) (١).

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة، وترجمان القرآن، مقدار ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم لا يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: سمعت ورأيت، وسمع الكثير من الصحابة، وورث له في فهمه والاستباط منه، حتى مأل الدنيا علماً وفقهاً. قال أبو محمد ابن حزم: وجمعت فتواه في سبعة أسفار كبار. وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالحجر، وفقهه واستباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس، وقد سمعوا ما سمع، وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزراع، فبذر فيها النصوص، فأثبتت من كل زوج كريم، و ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الجمعة: ٤.

وَأَيْنَ تَقَعُ فِتَاوَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَتَفْسِيرُهُ، وَاسْتِبْطَاؤُهُ مِنْ فِتَاوَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَتَفْسِيرِهِ؟ وَأَبُو هُرَيْرَةَ أَحْفَظُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ حَافِظُ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يُوَدِّي الْحَدِيثَ كَمَا سَمِعَهُ وَيَكْرِئُهُ بِاللَّيْلِ كَرَسًا، فَكَانَتْ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى الْحِفْظِ وَتَبْلِيغِ مَا حَفِظَهُ كَمَا سَمِعَهُ، وَهَمَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ مَصْرُوفَةٌ إِلَى: النَّفْقِ،

(1) رواه أصحاب السنن من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني، ولفظه: (نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يَبْلُغَهُ غَيْرُهُ فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ). انظر: سنن أبي داود 346/2 - كتاب العلم - باب فضل نشر العلم - حديث رقم 3660، وسنن الترمذي 33/5 - كتاب العلم - باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع - حديث رقم 2656، وصحيح الترغيب والترهيب 21/1 - حديث رقم 91.

والاستبطاء، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها" اهـ⁽¹⁾. وقد نقلته على طوله؛ لنفاسته.

والتقسيم الثالث: أرض قاع، مستوية، لا تقبل نباتا، ولا تمسك ماءً.

فهذا مثل القلب الذي لم يقبل العلم ولم يرفع به رأسا، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار؛ التي لا تبيت، ولا تحفظ الماء.

وأخيرا فالابد من التبيه إلى أن الفقه في الدين لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بثلاثة شروط: الأول: أن تكون الرغبة في طلب العلم والرسوخ فيه خالصة لله تعالى، وأن يكون هم صاحبه وغرضه من طلب العلم هو: التأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم، في سمته، وأخلاقه، ودعوته، وجهاده، والقيام بواجب الإصلاح في المجتمع على أتم وجه وأحسنه.

فهو لا يريد بطلب العلم شيئا من حطام الدنيا، لا مالا، ولا جاها، ولا ليجاري به العلماء، ولا ليماري به السفهاء.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ) خرجه الترمذي⁽²⁾.

وعند ابن ماجة وابن حبان، من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِيَتَمَارَوْا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالْتَرُ النَّارُ)⁽¹⁾.

(1) مجموع الفتاوى 92/4.

(2) سنن الترمذي 32/5 - كتاب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا - حديث رقم 2654. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم 6383.

الثاني: أن يكون طلب العلم مبنياً على أسس علمية متينة، وهذا يتطلب:

- 1- حفظ القرآن وتجويده، والإحاطة بالقراءات المتواترة والشاذة، رواية ودراسة.
- 2- حفظ الأحاديث الواردة في كتب السنة، والكمال يقتضي حفظ الأسانيد ومعرفة رجال الحديث، جرحاً وتعديلاً.
- 3- حفظ أمهات المتون في سائر الفنون.
- 4- العلم التام بأصول الإيمان وعقيدة السلف ومذاهب المخالفين.
- 5- العلم بتفسير القرآن وعلومه، ومن أهمها: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمكي والمدني.
- 6- العلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقه سنته، والإحاطة بعلم المصطلح.
- 7- العلم بسيرته صلى الله عليه وسلم وشماله، ومعرفة التاريخ الإسلامي.
- 8- العلم بالفقه ومعرفة الحلال والحرام.
- 9- العلم بأصول الفقه والقواعد الفقهية.
- 10- العلم بالنحو ومذاهبه.
- 11- العلم بلغة العرب وأسرارها⁽²⁾.

(1) سنن ابن ماجه 93/1 - كتاب - باب الانتفاع بالعلم والعمل به - حديث رقم 254، وصحيح ابن حبان 278/1 - حديث رقم 77. قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، رجال الصحيح.

(2) قال ابن فارس: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه. وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله حل وعز، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب - لم يجد من اللغة بُناً. ولسنا نقول: إن الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العرب؛ لأن ذلك غير مقدر عليه، ولا يكون إلا لني، كما =

12- العلم بالصرف والاشتقاق.

13- التمكن من علوم البلاغة.

14- معرفة عادات العرب، وأحوال أهل الكتاب في جزيرة العرب عند نزول القرآن⁽¹⁾.

15- معرفة أحوال الناس وثقافة عصرهم.

الثالث: لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على قدر عظيم من الإيمان؛ جعلهم يتذوقون القرآن حق التذوق، ووجدوا من حلاوته، ومن نوره، ومن فرقانه، ما يفوق الوصف، وفتح لهم في فهمه والفقهاء فيه؛ فأدركوا من معانيه وأهدافه ذلك الإدراك العجيب؛ مما أهلهم لأن يكونوا بحق خير الناس للناس. وما ذاك إلا لأنهم عاشوا بهذا القرآن، وعاشوا له كذلك⁽²⁾.

ومن تأمل تاريخ علماء المسلمين بعد الصحابة الكرام؛ يجد عددا ليس بالقليل من العلماء الربانيين المجتهدين، الذين ساروا في دعوتهم وسيرتهم على نهج الصحابة، وكان لهم من القوة في الحق، ومن الفهم الدقيق لآيات القرآن ما شهدت به تصنيفهم وآثارهم.

ولهذا فإن من أراد من طلاب العلم أن يفقه كتاب الله حقا؛ فعليه أن يتشبه - أثناء الطلب وبعده - بالأنبياء، والصحابة الكرام، في صفاتهم، وفي دعوتهم وجهادهم، وفي جميع أحوالهم، فيجمع بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة؛ لكي يعيش أحوالا مقاربة لتلك التي نزل فيها القرآن.

قناه أولاً. بل لواجب علم أصول اللغة والسنة التي وأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة. فأما أن يكلف القارئ أو الفقيه أو المحدث معرفة أوصاف الإبل وأسماء السباع ونوعت الأسلحة، وما قاتله العرب في الفلوات والقيافي، وما جاء عنهم من شواذ الأبيات وغرائب التصريف - فلا! اهـ. الصحابي في فقه اللغة ص 10.

(1) انظر التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي 58/1.

(2) انظر في ظلال القرآن 1410/3.

المعلم الخامس

ملازمة التدبر؛ لأجل التذکر، عند تلاوة القرآن واستماعه

لقد عظم الله تعالى شأن تدبر القرآن وكثرة منافعه وسعتها. والأصل في هذا قوله عز وجل:

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذُبَّ رُءُوسًا مِنْهُمْ وَلِيَذُكَّرَ أَزْوَاجًا وَلِيَرْتَدَّ عَنْ قُلُوبِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْكَاذِبِينَ ﴾ ص: ٢٩ .

فقد بين تبارك تعالى في شطر الآية الأول مكانة القرآن وعظمته، وفي الشطر الثاني بين الغاية من إنزاله.

فقوله: ﴿ كَتَبْنَا ﴾^(١)، أي: هو كتاب، والتكثير يراد به التفضيم؛ لأن الكتاب معلوم، فما كان تكثيره إلا لتعظيم شأنه، فالتقدير: هو كتاب عظيم، له من أوصاف الجلال والجمال والكمال ما لا يحاط به^(٢). ولا غرو فهو كلام رب العالمين.

ولهذا قال بعده: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾، بنون العظمة؛ إشارة إلى سر عظمة كتابه.

ومن عظمته أنه عزيز، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾^(٣) ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ عز وجل ﴿ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت: ٤١ - ٤٢ . ومعنى قوله: ﴿ عَزِيزٌ ﴾، أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء^(٣).

(1) قوله: ﴿ كَتَبْنَا ﴾ : مرفوع على أنه خير مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقوله: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ إِلَيْكَ صفة له، وقوله: ﴿ مَبْرُوكٌ ﴾ خير ثان للمبتدأ، ويجوز أن يكون إعراب ﴿ كَتَبْنَا ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة لكتاب، والخبر قوله: ﴿ مَبْرُوكٌ ﴾ ، والذي سوغ الابتداء بالكرة وصفه بجملة: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، ويجوز اعتبار التعظيم للاستفاد من تكثير ﴿ كَتَبْنَا ﴾ مسوغاً للابتداء به، ويكون ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ خبر أول، وقوله: ﴿ مَبْرُوكٌ ﴾ خبر ثان. انظر إعراب القرآن للنحس 462/3، والدر للصون للحلي 533/5، وفتح القدير للشوكاني 430/4، والتحرير والتوير 148/23.

(2) انظر نظم الدرر 374/16، والتحرير والتوير 148/23.

(3) ولهذا أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقصان، فهو محفوظ في تنزيهه محفوظ في ألفاظه ومعانيه. انظر تفسير السعدي ص 750.

ومن عظمته كذلك أنه كريم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مُقَرَّبٌ كَرِيمٌ﴾ الواقعة: ٧٧. قال السعدي: "أي: كثير الخير، عزيز العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستغاد من كتاب الله ويستبسط منه" اه (1).
 وقوله: إِيَّاكَ: يشير إلى تشريف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الإنزال. ويشير أيضا إلى أنه هو المبين للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ النحل: ٤٤.

والذكر هو القرآن، والتبيين شامل لألفاظه ومعانيه (2).

وقوله: وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ يشير إلى العلماء وما يستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه (3).

وقوله: مُبَرِّكٌ أَي: دائم خيره، كثير نفعه. قال ابن القيم: "البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركاً" اه (4).

وبركة القرآن تحصل في تعلمه، وتعليمه، وتلاوته، والاستماع والإنصات له، وتدبره، وفهمه، والعمل به، واطمئنان القلب به، وانسراح الصدر له، وزيادة الإيمان به، ومعرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته وأحكامه، وكذلك ما يحصل للأمة المستمسكة به من رفعة وسناء وظهور على جميع الأمم، وأيضا ما يحصل للمتمسك به من صحة القصد، وسلامة المنهج، وعلو المنزلة، والسعادة في الدنيا والآخرة (5).

(1) تفسير السعدي ص 836.

(2) انظر تفسير الطبري 211/17، وتفسير ابن كثير 474/4، وتفسير السعدي ص 441.

(3) انظر تفسير السعدي ص 441.

(4) مفتاح دار السعادة 174/1.

(5) انظر شرح مقدمة التفسير لابن عثيمين ص 16.

ولما عظم الله شأن كتابه وأشاد به؛ بين الغرض من إنزاله، فقال: **لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** .

وقوله: **لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** متعلق بـ **أَنْزَلْنَاهُ**، واللام فيه للتعليل. وأصله ليتدبروا، فأدغمت التاء في الدال؛ لتقرب مخرجيهما، وهو مشتق من دبر بوزن ضرب إذا تبع، فتدبره بمنزلة تتبعه، أي أنه يتعقب ظواهر الألفاظ؛ ليعلم ما يدبر ظواهرها من المعاني المكونة والتأويلات اللاحقة⁽¹⁾.
ولعل هذا هو السر في جعل التدبر غاية لإنزال القرآن؛ فإن المتدبر يتبع الآيات - بجملها وألفاظها - معملا فكره فيها؛ لكي يتوصل إلى ما فيها من أحكام ودلالات؛ من أجل أن يتبعها ويعمل بمقتضاها.

فالتدبر لفظ معجز، يتضمن إقامة حروف القرآن، وإقامة حدوده على حد سواء.
ولهذا قال الحسن البصري: "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل". رواه ابن أبي حاتم⁽²⁾.
ولا ريب أن جميع الناس مخاطبون بالأمر بتدبر القرآن، كل بحسبه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: **التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره**⁽³⁾.

(1) انظر الكشاف 90/4، والبحر المحييط لأبي حيان 396/7، وفتح القدير 430/4، والتحرير 148/23.

(2) تفسير ابن كثير 64/7.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره 75/1. وأخرجه القرطبي في كتاب القدر ص 264، رقم الأثر 414، بلفظ: "نزل القرآن على أربعة أوجه: حلال وحرام لا يسع أحدا جهلهما، ووجه عربي تعرفه العرب، ووجه تأويل يعلمه العلماء، ووجه تأويل لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن اتحل فيه علما فقد كذب".

يبد أن أولى الناس بالتدبر هم العلماء، لاسيما الراسخين منهم؛ لأنهم يملكون آله.

ولنا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليهم بقوله: **يَلْبِثُوا أَيَّتَهُمُ** هم العلماء⁽¹⁾.

فهم الذين يستطيعون منها الحكم والأحكام، وبينونها للناس، كما تقدم عند تفسير قوله عز وجل: **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمِينَ كَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَيْسَ لَكُمُ الْكِتَابُ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴿آل عمران: ٧٩﴾⁽²⁾.

والأمر بالتدبر يشمل التالي للقرآن، وكذلك المستمع المنصت له على حد سواء.

وقوله: **وَلْيَتَذَكَّرُوا أُولَآئِكَ** : هذه هي النتيجة؛ فالتذكر هو ثمرة التدبر.

والتذكر: هو الاتعاظ بمواعظ القرآن، والتأثر بما تدل عليه آياته؛ ثم العمل بمقتضى ذلك.

قال عز شأنه: **﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** السجدة: ١٥. فبمجرد تذكرهم واتعاظهم بمواعظ القرآن؛ امتثلوا وانقادوا، بقلوبهم وأبدانهم، فرحين بمنة الله عليهم، قد تلقوا أمر الله بالرضا والقبول والتسليم⁽³⁾.

فمن تدبر كتاب الله تعالى؛ ففهم مراد الله في آياته؛ فسيحصل له التذكر، بفعل المأمور وترك المحذور؛ إذا كان المحل - وهو القلب - صالحا لذلك.

قال تعالى: **﴿ سَيَذَكِّرُنَا لِمَنْ يَخْشَى ﴾** الأعلى: ١٠، أي: "من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه"⁽⁴⁾.

وقال عز وجل: **﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾** ق: ٣٧، أي: قلب حي زكي⁽¹⁾.

(1) انظر الكشاف 91/4، وتفسير البيضاوي 28/5، وتفسير أبي السعود 225/7.

(2) انظر ص 34.

(3) انظر تفسير الطبري 177/20، وتفسير السعدي ص 655.

(4) قاله ابن كثير في تفسيره 380/8.

والتذكر كلمة جامعة لمنافع التدبر، التي لا حصر لها.

قال ابن القيم: "فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين. وهو الذي يورث: المحبة، والشوق، والخوف، والرجاء، والإجابة، والتوكل، والرضا، والنفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال، التي بها حياة القلب وكماله. وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها. فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتُّبِعْتُمْ وَإِنْ سُئِلْتُمْ فَأَجَابُوا فَاسْتَبْرَأُوا فَانْصَبُوا فَادْنُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. (2)

فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب. ولهذا قال ابن مسعود: لا تهذبوا القرآن هذا الشعر، ولا تشروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة" اه باختصار (3).

(1) انظر تفسير السعدي ص 807.

(2) أخرجه النسائي في سننه 177/2 - حديث رقم 1010، والحاكم في المستدرک 367/1 - حديث رقم 879، وصححه، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 323/2: رجاله ثقات. وحسنه الألباني. انظر صحيح وضعيف سنن النسائي، حديث رقم 1010.

(3) مفتاح دار السعادة ص 187.

ولهذا خص تعالى التذکر بأولي الألباب، فقال: **وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ** ، والمراد بهم أولو العقول الزاكية، الخالصة من الشوائب⁽¹⁾.

وفيه تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول⁽²⁾. وهذا التخصيص يدل على تفاوت الناس في تدبرهم، ومن ثم في تذكرهم؛ لتفاوتهم في العقول والفهوم.

قال السعدي في بيانه لأولي الألباب: "يتذكرون بتدبرهم لها - أي الآيات - كل علم ومطلوب؛ فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذکر والانفعال بهذا الكتاب" اه⁽³⁾. ولما كان التدبر في قوله: **لِيَذَكَّرُوا بِآيَاتِهِ** غاية أصيلة لقوله: **أَنْزَلْنَاهُ**؛ جاء نزول القرآن على وجه وكيفية تحقق هذا الغرض.

وقد بين الحق تبارك وتعالى كيفية إنزاله في سورة الإسراء، بقوله: **وَقُرْءَا نَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا** الإسراء: ١٠٦.

وقوله: "قرآنا" منصوب على الحال من الضمير المنصوب في قوله: **فَرَقْنَاهُ** ⁽⁴⁾. والنكته في تقديم الحال على صاحبه التويه بكونه قرآنا، أي كونه كتابا مقروءا؛ فإن اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة؛ إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى.

(1) انظر تفسير الطبري 191/21، وروح المعاني 328/17.

(2) انظر تفسير السعدي ص 712، والتحرير والتنوير 148/23.

(3) تفسير السعدي ص 712.

(4) ذهب أكثر النحاة إلى أن "قرآنا" منصوب بفعل مقدر، أي: وقرآنا قرآنا فقرأه، وقيل فيه وجه آخر لا تخلو من تكلف، وقد رجحت قول ابن عاشور؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير، وهو متسق مع سياق الآيات. انظر معاني القرآن وإعرابه للرحاج 263/3، ومشكل إعراب القرآن 435/1، والفريد في إعراب القرآن المجيد للمتجرب الهمداني 306/3، والتحرير والتنوير 181/14.

ولما كان أصل القراءة هو الظهور والبروز⁽¹⁾؛ أفاد هذا الحرف أيضا أن القرآن علاوة على أنه حق ومشمتمل على الحق⁽²⁾، فهو ميسر للقراءة والتدبر، ودلالته على هذا الحق واضحة ظاهرة⁽³⁾.
وعامة القراء قرءوا قوله: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتخفيف، أي: بيناه، وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الدخان: ٤. وقرأ بعض الصحابة ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أي أنزلناه مفرقا شيئا بعد شيء بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. وبدل على هذا قوله: ﴿عَلَى مَكِّثٍ﴾⁽⁴⁾.

(1) أصل القرية عند أهل اللغة على قولين، الأول: أن أصلها الجمع والضم. انظر المفردات للراغب ص 402، والنهاية لابن الأثير 52/4، ولسان العرب 128/1، وتاج العروس 364/1. والثاني: أن القراءة أصلها هو الإظهار والبيان، وهذا القول محكي عن قطرب، كما ذكره الزجاج في معاني القرآن 305/1. فقرأ للمهموز، مشتق من الظهور والبيان، ومنه قوطم: ما قرأت الناقة سلا جزور قط، أي ما أظهرته، وأخرجته من رحمها، والقارئ هو الذي يظهر القرآن ويخرجه مقلاما محدودا، لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾، ففرق بين الجمع والقرآن، ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية - في إحدى الروايتين عنه - القراءة بالبيان، فقال: "﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي: بيناه، ﴿فَأَنبَغُ قُرْءَانَهُ﴾: اعمل به". صحيح البخاري 1876/4 - باب قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَأَنبَغُ قُرْءَانَهُ﴾، لقيمة: ١٨. ومن هنا الباب قوطم: قرأت للمرأة أي حاضت، وللمراد خروج دم الحيض وظهوره. وهذا القول هو الأرجح فيما يظهر، ورجحه عدد من المحققين، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى 478/20، وابن القيم في زاد المعاد 635/5، والشنقيطي في أضواء البيان 325/6.

(2) إشارة إلى الآية التي سبقت هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ الإسراء: ١٠٥.

(3) انظر التحرير والتوير 49/23.

(4) انظر المختصب لابن جني 68/2، وتفسير القرطبي 339/10، وأضواء البيان 188/3.

والذي يظهر أن قراءة العامة تدل أيضا على التفريق؛ لأن أصل "فرق" في اللغة هو التمييز بين شيئين⁽¹⁾.

وعليه فيكون معنى ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾: جعلناه فرقا، أي: أنزلناه منجما مفرقا، غير مجتمع، وأيضا جعلناه بينا، واضحا، مفصلا، وإطلاق الفرق على البيان؛ لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة المشبهة⁽²⁾.

وقوله: ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مشتمل على علتين، الأولى: ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾، وتلك علة لجعله قرآنا، والثانية: ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي أن يقرأ على مهل وتؤدة وتثبت، وهي علة لتفريقه.

والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أوضح وأثبت في نفوس السامعين.

لذا فسر ابن عباس ومجاهد وابن جريج المكث بأنه الترسل في التلاوة والترتيل، فيعطي القارئ القراءة حقها، ويحسنها، وبطيها بالصوت الحسن ما أمكن، من غير تلحين، ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن، بزيادة أو نقصان. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ أي شيء بعد شيء - جملة مؤكدة لما قبلها، دالة على التفريق المذكور.

ومما يدل على معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ الفرقان: ٣٢⁽³⁾. والترتيل: التبيين في ترسل وتثبيت.

(1) ومن هنا الباب الفرق في قوله تعالى: ﴿فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ لشعره: ٦٣، ومنه الفرق من الغنم، أي القطيع، والتفريق الجماعة للترفة عن آخرين. انظر معجم مقاييس اللغة 4/493، ومفردات الراغب ص 377.

(2) انظر تفسير ابن كثير 3/69، والتحرير والتوير 14/181.

(3) انظر تفسير ابن كثير 3/69، وتفسير القرطبي 10/339، التحرير والتوير 19/44، وأضواء البيان 3/188.

قال قتادة: **وَرَوَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**: وبيناه تبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: وفسرناه تفسيراً. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال النخعي والحسن: فرقناه تفريقاً، آيةً بعد آية (1).

والخلاصة أن كل هذا التيسير في كيفية إنزال القرآن؛ إنما هو لأجل تدبر آياته والعمل بها. وثمة أمر آخر يتعلق بالمنزل إليهم، يعين على تحقيق تدبر آيات القرآن: وهو الكيفية التي أمروا أن يقرءوا القرآن عليها.

فقد تقدم أن حقيقة التدبر هو: تتبع ظواهر الألفاظ، وتعقب جملها وآياتها؛ لمعرفة ما تكنه من معان وتأويلات.

وهذا لا يتحقق إلا بأن تكون تلاوة القرآن على الهيئة التي أمر الله عز وجل بها عباده، حيث قال: **﴿وَرَوَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾** المزمّل: ٤ (2).

قال الضحاك: انبذه حرفاً حرفاً (3). وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: بعضه على أثر بعض، على تودة (4).

وقال ابن عطية: "**وَرَوَّلِ الْقُرْآنَ تَقِيلاً** معناه في اللغة: تمهل، وفرق بين الحروف؛ لتبين. والمقصد أن يجد الفكر فسحة، للنظر وفهم المعاني" اهـ (5).

(1) انظر تفسير الطبري 226/19، وتفسير البغوي 83/6، وتفسير ابن كثير 109/6. والترتيل مشتق من الرتل، وهو حسن تناسق الشيء، ومنه نعر رتل؛ إذا كان مفلجاً، حسن التضديد. انظر مادة "رتل" في تحذيب اللغة 268/14، والقاموس المحيط 392/3.

(2) انظر تفسير السعدي ص 892.

(3) تحذيب اللغة 268/14.

(4) تفسير الطبري 680/23.

(5) المحرر الوجيز 146/16.

وقال ابن كثير: "وقوله: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، أي: اقرأه على تمهل؛ فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره" اه⁽¹⁾.

ويوضح هذا ويجليه ما ورد في السنة. فقد روى مسلم من حديث حفصة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كَانَ يُرَتِّلُ السُّورَةَ حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلُ مِنْ أَطْوَلِ مِنْهَا)⁽²⁾.
وسئل أنس رضي الله عنه كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: (كَانَتْ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ). رواه البخاري⁽³⁾.
وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها: نَعَتَتْ قِرَاءَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هِيَ تَنَعَّتْ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا. أخرجه: الترمذي، وأبو داود، والنسائي⁽⁴⁾.

(1) تفسير ابن كثير 250/8.

(2) صحيح مسلم 507/1 - كتاب صلاة للمسافرين وقصرها - باب جواز النافلة قائماً وقاعاً... - حديث رقم 733.
(3) صحيح البخاري 1429/4 - كتاب فضائل القرآن - باب مد القرية - حديث رقم 4759. قال ابن حجر في الفتح 91/9: "وأخرج ابن أبي داود من طريق قطبة بن مالك: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر، فمر بهذا الحرف: {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ}، فمد نضيداً. وهو شاهد جيد لحديث أنس. وأصله: عند مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث قطبة نفسه" اه.

(4) سنن الترمذي 183/5 - كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء كيف كان قراءة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث رقم 2923. قال الترمذي: "هنا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة. وقد روى ابن جريح هذا الحديث عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقطع قراءته وحديث الليث أصح". وضعفه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي. والحرف يطلق على حروف الهجاء، وعلى كل أداة بنيت بحرفين وأكثر، مثل: حتى وهَلْ وْبَلْ، كما يطلق الحرف على كل كلمة تُقرأ على وُجُوهِ من القرآن. انظر تهذيب اللغة 12/5، مادة "حرف".

ومعنى نعتت، أي: وصفت، والقراءة المفسرة، أي: الميسنة، ومعنى: (حرفا حرفا)، أي: كان يقرأ بحيث يمكن للمستمع عد حروف ما يقرأ؛ من فرط تودته وجودة قراءته ووضوحها، والمراد حسن الترتيل، والتلاوة على ما يقتضيه التجويد⁽¹⁾.

قال ابن بطال: "وإنما كان يفعل ذلك والله أعلم؛ لأمر الله له بالترتيل، وأن يقرأه على مكث، وألا يحرك به لسانه ليعجل به، فامثل أمر ربه تعالى؛ فكان يقرؤه على مهل؛ لئيبن لأتمته كيف يقرءون، وكيف يمكنهم تدبر القرآن وفهمه" اهـ⁽²⁾.

وجعل التذبر في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩ غاية لإنزال القرآن، وسببا للتذكر والعمل - يقتضي المداومة على هذا التذبر. ويؤيده مجيء الأفعال **لِيَدَّبَّرُوا**، **وَلِيَتَذَكَّرَ** - بصيغة المضارع، الدالة على الاستمرار والتجدد.

ولهذا لما شرع الله الصلوات الخمس المكتوبة جعل قراءة القرآن فرضا فيها. فإن الله عز وجل لما أمر بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها المحددة؛ أوجب قراءة القرآن فيها، وأمر بإقامة هذا القرآن، فقال عز شأنه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الإسراء: ٧٨. ولفظ الإقامة يدل على لزوم المداومة والمواظبة على إقامة القرآن⁽³⁾.

(1) انظر: تحفة الأحوذى للمباركفوري 194/8.

(2) شرح ابن بطال على صحيح البخاري 274/10.

(3) انظر التحرير والتنوير 143/14.

والمراد بدلوك الشمس: ميلها، وهو يتبدى بالزوال، وينتهي بالغروب⁽¹⁾. فتناول صلاة الظهر والعصر والمغرب⁽²⁾. وغسق الليل: شدة ظلمته⁽³⁾. وهو يشير إلى نهاية وقت العشاء⁽⁴⁾. وقوله:

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 255/3، ومجموع الفتاوى لابن تيمية 11/15، وروح المعاني للأوسى 132/15. قال صاحب القاموس: "دلكت الشمس دلوكة: غرقت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء" اهـ. القاموس المحيط 312/3.

(2) انظر التحرير والتنوير 143/14. قال ابن عطية في المحرر الوجيز 332/10: "الدوك هو الليل في اللغة؛ فأول الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكة؛ لأنها في حالة ميل، فذكر الله الصلوات التي في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك: الظهر، والعصر، والمغرب" اهـ.

(3) انظر جمهرة اللغة لابن دريد 845/2، والمفردات للراغب الأصفهاني 152/2.

وأصله من السيلان، يقال: غسقت العين، أي: سال دمعها، وغسقت اللبن غسقا أنصب من الضرع، وغسقت السماء تعيق غسقا وغسقا أنصبت، فكان الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم. ويقال: غسقت العين: امتلأت دمعاً، وغسقت الجرح: امتلأ دماً، فكان الظلمة مألث الوجود. انظر: الدر المنون للحلي 412/4، ولسان العرب 288/10، مادة (غسق).

(4) وعلى هنا يكون معنى الآية الأمر بإقامة الصلاة المكتوبة من دلوك الشمس مبتدئاً بصلاة الظهر إلى غسق الليل وهو نهاية وقت صلاة العشاء، وهو نصف الليل، على القول الراجح.

ويترتب عليه أن ما بعد منتصف الليل ليس وقتاً للفرائض، وإلا لقال الله: أقم الصلاة للدلوك الشمس إلى طلوع

الشمس، فلما قال: **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** وهو منتهى ظلمته، وأشد ما تكون ظلمة الليل عند منتصفه.

ويؤيده حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: (وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ مَا لَمْ يَحْضُرِ الْعَصْرُ وَوَقْتُ الْعَصْرِ مَا لَمْ تَصْفُرِ الشَّمْسُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَتَبَيَّبِ الشَّقَقُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوْسَطِ وَوَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ) الحديث رواه مسلم في صحيحه 105/2 - كتاب للمساجد ومواضع الصلاة - باب أوقات الصلوات الخمس - حديث رقم 1419.

﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾: منصوب بالعطف على الصلاة في قوله: أَقْرِ الصَّلَاةَ ، والتقدير: أقم الصلاة، وأقم قرآن الفجر (1).

ولفظ "قرآن" مصدر، أي قراءة؛ فمعنى قرآن الفجر، أي القراءة في صلاة الفجر (2).

وأجمع العلماء على أن المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح (3). ويدل عليه أنه قال بعدها على

سبيل التعليل والبيان: إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَأَنَّ مَشْهُودًا (4)

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر) ثم يقول أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَأَنَّ مَشْهُودًا﴾ (5). فتناولت الآية الصلوات الخمس المكتوبة.

وعطف قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ على قوله: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ﴾؛ إشارة إلى أن لكل صلاة مكتوبة قرآنا. وكذلك النافلة سماها قرآنا، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَ مِنْ الْقُرْءَانِ﴾

(1) هنا ما ذهب إليه جمهور للفسرين والنحاة من أهل الكوفة. وذهب الأنخفش، وبعض البصريين إلى أنه منصوب على

الإعراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر. انظر تفسير الطبري 520/17، ومعاني الزجاج 255/3.

(2) التمهيد لابن عبد البر 51/19.

(3) انظر تفسير البغوي 128/3، وتفسير الرازي 28/21، وتفسير ابن كثير 55/3، وتفسير السعدي ص 464.

(4) انظر فتح القدير للشوكاني 358/3.

(5) صحيح البخاري 232/1 - باب فضل صلاة الفجر في جماعة - حديث رقم 621، وصحيح مسلم - باب

فضل صلاة الجماعة... - حديث رقم 649.

المزمّل: ٢٠، أي قوموا من الليل ما تيسر. وقد يعبر عن القراءة بالصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ١١٠ ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك^(١).

والتعبير عن صلاة الصبح ببعضها، وهو القرآن الذي يقرأ فيها؛ يدل على أن هذا الجزء له حكم الأصل، وهو الوجوب، كما هو مقرر في الأصول^(٢).

وجمهور العلماء يوجبون على الإمام والمأموم قراءة الفاتحة^(٣).

وانما عبر عن صلاة الفجر بالقراءة دون غيرها من الصلوات؛ لأنها جهرية، والقرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها؛ فإنها تصلى بسورتين طويلتين، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة^(٤). ولأنها تكون في وقت يتواطأ فيه السمع واللسان والقلب؛ لقراغه وعدم تمكن الاشتغال فيه، فيفهم القرآن ويتدبره^(٥).

ولعل من أسرار التعبير عن صلاة الصبح بقرآنها؛ أن إقامتها لا تتحقق إلا بإقامة هذا القرآن، وأن يتلى فيها على الوجه المطلوب، من حيث الترتيل والتجويد، لاسيما وأن الملائكة تشهدها؛ لكي توتي القراءة ثمرتها من التدبر والتذكر والعمل.

(١) انظر تفسير ابن كثير 439/4، والتحرير والتنوير 186/14.

(٢) قال في شرح الكوكب المنير 356/1: "وإن كنى الشارع عن عبادة بعض ما فيها، نحو تسمية الصلاة قرآنا في قوله تعالى:

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ؛ دل على فرضيته، أي فرض للمكئ به عن تلك العبادة؛ لأن العرب لا تُكئ عن الشيء إلا

بالأخص به" اهـ باختصار.

(٣) انظر تفسير القرطبي 306/10.

(٤) انظر صحيح البخاري 266/1 - باب القراءة في الفجر، وصحيح مسلم 336/1 - باب القراءة في الصبح، وزاد

للعاد 214/1، والتحرير والتنوير 143/14.

(٥) انظر التسهيل لابن جزي 177/2، وزاد للعاد لابن القيم 216/1.

والمقصود أن الله عظم شأن القرآن الذي يتلى في الصلوات: الفريضة، والنافلة، وأشاد بقراءة صلاة الفجر على وجه الخصوص، وأمر بها؛ لبيان أن ركن الصلاة ومقصودها الأعظم هو الذكر بقراءة القرآن والاستماع إليه وتدبره. لذا أجمع العلماء - كما يقول القرطبي - على أنه لا صلاة إلا بقراءة⁽¹⁾.

وما ذاك إلا لأهمية الاستماع إلى قراءة القرآن وتدبر آياته والتفكير فيها.

لذا أوجب الله الإنصات والاستماع إلى القرآن في الصلاة بقوله عز شأنه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٤.

قال الإمام أحمد عن هذه الآية: "أجمع الناس على أنها نزلت في الصلاة"⁽²⁾. ويدخل في الرحمة التي وعد الله بها المنصتين للقرآن المستمعين له أنواع من الخير، لا حصر لها. قال السعدي: "والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع؛ فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله؛ فإنه ينال خيرا كثيرا، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه"⁽³⁾.

وعليه فمن داوم على تدبر القرآن - حال تلاوته واستماعه - في الصلوات المكتوبة؛ هان عليه التدبر في النوافل، وفي سائر أحواله. لاسيما عند صلاح النية وسلامة القصد؛ فهو لا يتدبر القرآن إلا رغبة في التذكر والعمل؛ فيفتح الله له في فهم القرآن ودقائق معانيه؛ بركة التدبر وحسن القصد ما هو مغلق على غيره ممن أهمل التدبر. ومن كان هذا شأنه؛ فسيصبح تدبر القرآن منهجا دائما له، لا يجيد عنه البتة.

(1) تفسير القرطبي 1/123، وانظر أحكام القرآن للحصص 5/32، وأحكام القرآن لابن العربي 3/210.

(2) انظر للمغني لابن قدامة 1/330، وجموع الفتاوى لابن تيمية 22/295.

(3) تفسير السعدي ص 314.

المعلم السادس

إحياء القلب وتقويته بإقامة الفرائض والمداومة على النوافل

خلق الله الإنسان، وجعل القلب فيه مهيمنا على بقية الأعضاء، فإذا صلح القلب صلح سائر الأعضاء، وكذلك العكس. قال صلى الله عليه وسلم: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). منقذ عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه (1).

ومن المعلوم أن القلب هو محل تلقي القرآن، والفقهاء فيه (2). ويقدر صلاح هذا القلب وحياته يكون فهم القرآن ومعرفة مراد الله في آياته.

وقد عبر القرآن عن القلب الصالح بالقلب السليم.

قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ قَلْبًا سَلِيمًا ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩. وهو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شهوة تعارض خبره، وسلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عيوديته لله تعالى: إرادة، ومجبة، وتوكلا، وإناية، وإخباتا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله، وسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله عليه وسلم (3).

(1) صحيح البخاري 28/1 - كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه - حديث رقم 52. وصحيح مسلم 50/5

- كتاب البيوع - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - حديث رقم 4178.

(2) وقد تكرر في القرآن إسناد الفقه إلى القلوب، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الأعراف: ١٧٩، وقوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ﴾ التوبة: ٨٧.

(3) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم 7/1.

وجماع صلاح القلب هو: حياته بالإيمان، المشمر للعمل الصالح، واستنارته بالعلم النافع، الهادي إلى الرشد. قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢ (١).

فجمع الله تعالى في هذه الآية بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون: قوة القلب، وسمعه، وبصره، وحيأؤه، وعفته، وشجاعته، وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، قد استقام على فطرته في محبته لكل حسن، وبغضه لكل قبيح. وكذلك إذا قوي نور القلب وإشراقه، الناشئ من العلم النافع والعمل الصالح؛ انكشفت له حقائق الأشياء على ما هي عليه، واستبان له الحق من الباطل والحسن من القبيح (٢).

و قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ﴾ الأنفال: ٢٤.

ومعنى الاستجابة لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم هو: الاتقياد لما أمرا به، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه (٣).

ولما كانت حياة القلب منوطة بهذه الاستجابة؛ حذر عز وجل من التهاون فيها، فقال: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، أي: إن تركتم الاستجابة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم؛ فلا تقدرتون على الاستجابة بعد ذلك.

(١) انظر: تفسير العز بن عبد السلام 459/1، وتفسير ابن كثير 330/3.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢١، وإغالة اللفغان لابن القيم ١٢١، وتفسير السعدي ص ٣٧.

(٣) تفسير السعدي ص 318.

ويشبهه هذا إن لم يكن بعينه قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يونس: ١٣.

وفي موضع آخر: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ الأعراف: ١٠١^(١).

والاستجابة لفظ جامع يشمل الإيمان والعلم والعمل، وقد يعبر القرآن عن الاستجابة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالتقوى، وهو لفظ جامع أيضا، كما في قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَنْقُو اللَّهَ لِيَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الأنفال: ٢٩.

فلت الآية على أن من اتقى الله بفعل أو امره وترك زواجره؛ وفق للعلم النافع الذي يميز به بين الحق من الباطل؛ فكان ذلك سبب نصره، ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، ومحو ذنوبه، وسترها عن الناس، وسببا لئيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُو اللَّهَ آمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْمِنُ كَفَلَيْنَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحديد: ٢٨^(٢).

وكما في قوله: ﴿وَأَنْقُو اللَّهَ يُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ عَلَى عِلْمٍ﴾ البقرة: ٢٨٢.

(1) شفاء العليل لابن القيم ص 31. وانظر: الخمر الوجيز لابن عطية 123/7، وتفسير السعدي ص 298.

(2) انظر: تفسير ابن كثير 43/4، وتفسير السعدي ص 319.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارن الآخر ويلتزمه ويتنصيه، فمتى علمه الله العلم النافع؛ اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه؛ زاده من العلم، وهَلُمَّ جَرًّا " اه (1).

والاستجابة والتقوى كلاهما يقومان إجمالاً على فعل الأوامر وترك المناهي.

لكن الأصل هو فعل المأمورات، وترك المناهي فرع له (2). لأن فعل المأمور مقصود لذاته، وترك المنهي مقصود؛ لتكميل فعل المأمور، فهو منهى عنه؛ لأجل كونه يدخل بفعل المأمور، أو يضره وينقصه.

(1) مجموع الفتاوى 178/18.

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: " الأمر أصل، والنهي فرع؛ فإن النهي نوع من الأمر؛ إذ الأمر هو الطلب والاستدعاء والاقتضاء، وهذا يدخل فيه طلب الفعل وطلب الترك، لكن خص النهي باسم خالص، كما جرت عادة العرب أن الجنس إذا كان له نوعان، أحدهما يتميز بصفة كمال أو نقص أفردوه باسم، وأبقوا الاسم العام على النوع الآخر، كما يقال: مسلم، ومنافق، ويقال: نبي ورسول" له. وترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب للمناهي، وذلك من وجوه عديدة: منها أن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة، و"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، ويدخلها من مات على التوحيد وان زنى وسرق. قال سهل بن عبد الله: ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نهي عن أكل الشجرة؛ فأكل منها؛ فتاب عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم؛ فلم يسجد؛ فلم يتب عليه. ومنها: أن الله سبحانه جعل جزاء للمأمورات عشرة أمثال فعلها، وجزاء للمنهيات مثل واحد، وهذا يدل على أن فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهي عنه. ومنها: أن فعل للمأمورات من باب حفظ قوة الإيمان ويقائها، وترك للمنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدم على الحمية. ومنها: أن فعل للمأمورات حياة القلب وغناؤه وزيته وسروره وقرّة عينه ولذته ونعيمه، وترك للمنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيء من ذلك، فانه لو ترك جميع للمنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال للمأمور بها ولم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً مخلطاً في النار.

انظر: الفوائد لابن القيم ص 120.

كما نبه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ المائدة: ٩١.

فالمنهيات قواطع وموانع صادّة عن فعل المأمورات أو عن كمالها، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه. كما أن فعل المأمور يقتضي ترك المنهي عنه؛ إذا فعل على وجهه من الإخلاص والمتابعة والنصح لله فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الصَّالِحُونَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥. ومجرد ترك المنهي لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه. ولهذا فإن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي.

وفي كثير من النصوص علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ آل عمران: ١٤٦.

بينما في جانب المنهي اقتصر فيه على نفي المحبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لقمان: ١٨.

بل إن ما يقدره الله مما يكرهه ويسخطه من الكفر والمعاصي؛ إنما هو لما يترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها: من الولاء والبراء، والجهاد، واتخاذ الشهداء، وحصول التوبة من العبد، والتضرع إليه والاستكانة، وإظهار عدله وشفوه وانتقامه وعزه. وغير ذلك من الآثار⁽¹⁾.

(1) انظر الفوائد لابن القيم ص 126.

والحاصل أن من أعظم الأسباب المعينة على فهم القرآن والفقه فيه: سلامة القلب المتلقي له، وحياته، واستنارته. وهذا لا يتحقق إلا بالتقوى والاستجابة لأمر الله تعالى وأمر ورسوله صلى الله عليه وسلم، بإقامة الفرائض والمداومة على النوافل.

ومن أظهر الأدلة على هذا المعنى الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فِإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَاطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ وَلَيْتَنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيْنَهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) (1).

وأولياء الله هم المتقون، كما قال عز وجل: ﴿إِن أَوْلِيَآؤُهُمُ إِلَّا الْمُنْتَفُونَ﴾ الأنفال: ٣٤ على أحد الوجهين في تفسيرها (2).

وهم الذين نعتهم الله في كتابه، بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢ - ٦٣، فكل من كان مؤمناً تقياً؛ كان لله ولياً (3).

والتقي هو الذي يعمل بطاعة الله، على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عقاب الله (1).

(1) صحيح البخاري 2384/5 - كتاب الرقاق - باب التواضع - حديث رقم 6137.

(2) انظر تفسير السمرقندي 20/2، وروح المعاني للأوسمي 202/9، وتفسير السعدي ص 320.

(3) انظر تفسير الطبري 123/15، ومجموع الفتوى لابن تيمية 224/2.

قال الحافظ ابن حجر: "المراد بولي الله: العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته" اهـ⁽²⁾.

وأفاد قوله: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ): أن الفرائض هي أعظم القرب وأحبها إلى الله تعالى.

وهذا يعني أن التقرب إلى الله بها يقتضي تحسينها وأدائها على أخلص وجه وأصوبه. فإذا تمكن العبد من إقامة الفرائض؛ هانت عليه النوافل، وأحبها، وداوم على فعلها. وإلى هذا المعنى يشير قوله: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)⁽³⁾.

وأعظم فرائض البدن التي تحيي القلب، وتُقرب إلى الله: الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق: ١٩.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ)، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه⁽⁴⁾.

ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل: المداومة على ذكره عز وجل، وكثرة تلاوة القرآن واستماعه، بتفكير وتدبر وتفهم.

(1) قيل لطلق بن حبيب - وهو من علماء التابعين العباد - صف لنا التقوى؟ قال: التقوى عمل بطاعة الله؛ رجاء رحمة الله، على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله؛ مخافة عقاب الله، على نور من الله. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 164/6.

(2) فتح الباري 342/11.

(3) انظر فتح الباري 343/11.

(4) صحيح مسلم 49/2 - كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - حديث رقم 1111.

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه لرجل: إن استطعت أن تقرب إلى الله؛ فإنك لا تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه (1).

وصلاة النافلة - لاسيما صلاة الليل - تجمع ذلك كله. وبهذا يحيا القلب.

قال صلى الله عليه وسلم (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) رواه البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه (2).

والشاهد من الحديث لهذا المعلم هو قوله: (فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ).

وفي رواية عند الطبراني من حديث أبي أمامة: (ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فأكون أنا سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَلسانُهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، وَقَلْبُهُ الَّذِي يَعْقِلُ لَهُ) (3).
والمعنى: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصيرُ يعبد الله على الحضور والمراقبة، كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى، ومحبتة، وعظمتته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأُنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة.

ومتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى؛ محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه، فحيث لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به (4).

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 135/6، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص 32.

(2) صحيح البخاري 2353/5 - كتاب الدعوات - باب فضل ذكر الله عز وجل - حديث رقم 6044.

(3) للمعجم الكبير 206/8 - حديث رقم 7833. وفي سننه علي بن يزيد ضعيف، كما في التقريب ص 406.

(4) جامع العلوم والحكم ص 366.

ويؤيده رواية: (فِي يَسْمَعُ وَيِي يُصِرُّ وَيِي يُطِشُّ وَيِي يَمْشِي) (1).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فهؤلاء الذين أحبو الله محبة كاملة، تقربوا بما يحبه من النوافل، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض - أحبه الله محبة كاملة؛ حتى بلغوا ما بلغوه، وصار أحدهم يدرك بالله، ويتحرك بالله، بحيث إن الله يجيب مسأله، ويعينه مما استعاض منه" اهـ (2).

ومن بلغ هذه المنزلة؛ وفق لتدبر آيات الله وفهمها وحسن الاستبطاء منها، وفتح له من أبواب الفقه في كتاب الله ما لا يخطر ببال.

قال ابن القيم: "فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه. فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصليقية ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد" اهـ (3).

ومن أجل العبادات المعينة على فهم القرآن الدعاء.

ومن أنفع الأدعية في هذا الشأن ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه: (كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (4).

(1) فتح الباري 344/11.

(2) مجموع الفتاوى 755/10.

(3) ملارج السالكين 41/1.

(4) صحيح مسلم 185/2 - كتاب صلاة للسافرين وقصرها - باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه - حديث رقم

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني؛ اقتداء بمعاذ بن جبل، رضي الله عنه، حيث وصى عند موته مالك السكسكي -أحد تلاميذه- بأن يطلب العلم عند أربعة: عند أبي الدرداء، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع. ثم قال معاذ: فإن عجز عنه هؤلاء؛ فسائر أهل الأرض عنه أعجز؛ فعليك بمعلم إبراهيم، صلوات الله وسلامه عليه⁽¹⁾.

(1) ذكره ابن عبد الهادي في العقود الدرية 42/1، وابن القيم في إعلام الموقعين 257/4.

المعلم السابع

أهمية سلامة القلب وتطهيره من أدران الشبهات والشهوات

هذا المعلم مكمل للمعلم السابق. فإذا كانت المحافظة على القلب حيا قويا سليما من الأمراض والآفات - من باب الوقاية؛ فإن القلب إذا أصيب، وتدنس بأدران الشبهات والشهوات؛ لزم علاجه، وتطهيره من أدرانه، وهو موضوع هذا المعلم.

والأصل فيه قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَظَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ﴾ محمد: ٢٤ .
فإذا مات القلب واستحكمت عليه أقفاله؛ فهو الختم والطبع، كما قال عز وجل عن الكفار:
﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ البقرة: ٧ .

وقال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفْقَالًا وَلَيْتَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد: ١٦ .

والسمع ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة⁽¹⁾.
فلما كانت غاية حضور هؤلاء المنافقين لمجالس الذكر خالية من حسن القصد والرغبة في الفهم والالتقياد والعمل - أثبت لهم استماعا، لا يتجاوز آذانهم؛ فلا يصل إلى قلوبهم التي طبع عليها؛ بسبب كفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ النساء: ١٥٥ .
فلم يتفهموا بما سمعوا، وخرجوا بمثل ما دخلوا به من علم الفهم وسؤ القصد.

قال الحافظ ابن كثير: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح⁽²⁾.

(1) مدارج السالكين 44/1.

(2) تفسير ابن كثير 315/7.

وهناك درجة دون موت القلب، وهي مرضه؛ فيكون عليه بعض أفعاله.
ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله؛ فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق، محباً له، مؤثراً
له على غيره⁽¹⁾.

فمرض القلب هو نوع فساد يحصل له، يؤدي إلى فساد في ناحيتين منه⁽²⁾؛
الأولى: فساد في تصوره وفهمه بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على
خلاف ما هو عليه.

الثانية: فساد في إرادته وقصده؛ بالشهوات التي تحمله على بغض الحق النافع، ومحبة
الباطل الضار.

وعليه فأمرض القلوب في الجملة نوعان:
الأول: مرض الشبهات، كالكفر، والنفاق، والشكوك، والبدع. ويدل عليه قوله تعالى عن
المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة: ١٠، أي: في قلوبهم شك، كما قال ابن
عباس، وغير واحد⁽³⁾.

والثاني: مرض الشهوات، كالزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي، وفعالها.
ويدل عليه قوله تعالى لنساء نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي
قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ الأحزاب: ٣٢، أي: فجور وشهوة⁽⁴⁾.
قال عكرمة: المرض: شهوة الزنا⁽⁵⁾.

(1) شفاء العليل لابن القيم ص 98.

(2) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية 93/11.

(3) انظر: تفسير الطبري 280/1، وتفسير السعدي ص 42.

(4) تفسير البغوي 348/6.

(5) تفسير الطبري 258/20.

فمن رام فهم كلام الله والغوص في معانيه؛ فليحرص على تطهير قلبه من أدران الشهوات والشبهات؛ فإنها من أعظم أفعال القلوب التي تحول بينه وبين فقه آيات القرآن. قال ابن القيم: "فلو رفعت الأفعال عن القلوب لبشرتها حقائق القرآن واستارت فيها مصابيح الإيمان" (1).

وقال في موضع آخر: "فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله؛ لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق" (2).

وتعد الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب علل القلوب؛ فإنها تعمي بصر القلب، وتطمس نوره، وتوهن إرادته، وتسد عليه طرق العلم، وتعلق دونه مسالك الفهم، وتحجب عنه أسباب الهداية والرشاد (3).

لما جلس الإمام الشافعي - في زمن الطلب - بين يدي الإمام مالك، وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من: وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه؛ فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً؛ فلا تطفئه بظلمة المعصية (4).

وعلاج ذلك هو بصدق الاستغفار والتوبة النصوح، والإفلاع عن جميع الذنوب المعاصي. أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذِنَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ مِنْهَا قَلْبُهُ فَإِنْ عَادَ

(1) ملاح السالكين 471/3.

(2) إعلام الموقعين 175/1.

(3) انظر الجواب الكافي لابن القيم ص 51.

(4) ذكر هذه القصة النووي في تهذيب الأسماء واللغات 69/1، وابن القيم في الجواب الكافي ص 34.

رَأَيْتَ حَتَّى يُغْلَقَ بِهَا قَلْبُهُ فَذَاكَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَأَلَدَلَّ أَنْ عَلَنَ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾
المطففين: ١٤ (1).

وملاك هذا الأمر هو بالمداومة على التوبة؛ فهي الضامن لطهارة القلب وسلامته من أدرانها وأدوائه.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.
قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات

وقال مقاتل بن حيان: يحب التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك.
وقال سعيد بن جبير: التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب.
وقال مجاهد: التوابين من الذنوب، لا يعودون فيها، والمتطهرين منها، لم يصيها.
والتواب: هو المداوم على التوبة، المبالغ فيها، الذي كلما أذنب سارع إلى التوبة، نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ الإسراء: ٢٥ (2).
قال طلق بن حبيب: إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعمة الله أكثر من أن تحصي، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين (3).

(1) للسند 297/2 - حديث رقم 7939. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي. وأخرجه الترمذي 434/4 - حديث

رقم 3334، وقال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم 1670.

(2) انظر هذه الأقوال في تفسير البغوي 259/1.

(3) أخرجه ابن المبارك في الزهد 101/1، وأبو نعيم في الحلية 65/3.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين... وبعد:
فهذه خاتمة، أجمل فيها ما توصلت إليه من نتائج في هذا البحث، على النحو التالي:
لما كانت حاجة الناس إلى نور القرآن وهداياته عظيمة القدر؛ تكفل الله تعالى بحفظه، ويسره
للذكر، وجعل العالمين به في أعلى المنازل؛ فحري بمن أراد الفقه بكتاب الله تعالى أن يسلك في
هذا المنهج الصحيح.

هذا المنهج له معالم واضحة، تدل عليه، من أهمها:

أولاً: لا بد أولاً من استشعار نعمة القرآن وتعظيمها، ثم الشعور بأهمية شكر المنعم بها. والسييل
إلى هذا هو بالقيام بالقرآن والعمل به. ولا يتحقق هذا على الوجه الصحيح إلا بتعلم القرآن والفقه فيه.
ثانياً: وأول خطوة في هذا السيل هي بغرس محبة القرآن وتعظيمه في القلب. وذلك بأن
يملاً العبد أولاً قلبه بتعظيم الله عز وجل ومحبته، ومعرفة حق المعرفة، بأسمائه وصفاته. ثم العلم ثانياً
بصفات هذا القرآن ومفاخره العظيمة وخصائصه المعجزة.

ثالثاً: والخطوة الثانية: هي الأخذ بمنهج الصحابة في تلقي القرآن، وقد دلت على هذا المنهج
آيات كثيرة. وكان من أهم صفات الصحابة في هذا الشأن: أن الباعث لهم على فهم القرآن هو
الإيمان، كما أن الغاية التي يبعثونها من وراء هذا الفهم هي العمل. ثم إنهم كانوا يتلقون القرآن بنفوس محبة
ومعظمة له، وكانوا على الدوام يأخذونه بقوة وعزيمة صادقة. كما أنهم في تلاوتهم للقرآن يتلونه حق
تلاوته؛ فيقيمون حروفه وحدوده على السواء؛ فبلغوا الكمال في استسلامهم لتوجيهات الوحي.

رابعاً: لا بد من التنبه إلى أن الفهم الصحيح للقرآن مبناه على الفقه في جميع أصول الدين
وفروعه. والأصل في هذا: آية الراسخين في العلم في سورة آل عمران، وحديث: (اللهم فقهه في
الدين وعلمه التأويل).

- خامسا: المداومة على تدبر القرآن - حال تلاوته واستماعه - في سائر الأحوال؛ لأجل التذكر والعمل. والأصل في هذا قوله عز وجل: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِزْرًا مُبْرَكًا لِيَذَرُوا آيَاتِنَا وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩؛ فيفتح الله للمتدبرين - بركة التدبر وحسن القصد - في فهم آيات القرآن ودقائق معانيها ما هو مغلق على غيرهم ممن أهمل التدبر.
- سادسا: لا بد من العناية بالقلب بعناية فائقة من وجهين:
- 1- إحيائه وتقويته بإقامة الفرائض والمداومة على النوافل.
 - 2- أهمية وقاية هذا القلب من أدوائه، وتطهيره من الشبهات المضلة والشهوات المطغية.

فهرس المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أحكام القرآن: لأحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، 1405هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
3. أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1408هـ، بيروت - لبنان.
4. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
5. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكي الشنقيطي، عالم الكتب - بيروت.
6. إعراب القرآن: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد، الطبعة الثالثة، 1409هـ، عالم الكتب - بيروت.
7. إعلام الموقعين عن رب العالمين: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، 1973م، دار الجيل - بيروت.
8. إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، 1395هـ، دار المعرفة - بيروت.
9. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، دار الفكر - بيروت.
10. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري، الطبعة الخامسة، 1979م.

11. البحر المحيط: لمحمد بن يوسف، الشهرير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، الطبعة الأولى 1413هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
12. البرهان في علوم القرآن: لأبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، 1391هـ، دار المعرفة - بيروت.
13. بيان إعجاز القرآن: لأبي سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف - القاهرة.
14. تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين - دار الهداية.
15. التحرير والتبوير من التفسير: لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، 1420هـ، بيروت - لبنان.
16. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
17. التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبلي، الطبعة الرابعة 1403هـ، دار الكتاب العربي - لبنان.
18. التعريفات: لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأياري، الطبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
19. تفسير القرآن (اختصار النكت للماوردي): لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الطبعة الأولى، 1416هـ، دار ابن حزم - بيروت.

20. تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية 1420هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.
21. تفسير القرآن العظيم: للحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، الطبعة الثانية 1419هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - الرياض.
22. تفسير القرآن الكريم: لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق الدكتور/محمود مطرحي، الطبعة الأولى 1418هـ، دار الفكر، بيروت - لبنان.
23. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، 1410هـ، المكتبة التجارية - مكة المكرمة.
24. تفسير مقاتل بن سليمان: لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تحقيق أحمد فريد، الطبعة الأولى، 1424هـ، دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت.
25. التفسير والمفسرون: للدكتور/ محمد حسين النهي، الطبعة الثانية، 1396هـ، دار إحياء التراث العربي، ودار الكتب الحديثة، القاهرة.
26. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، 1387هـ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب.
27. تهذيب الأسماء واللغات: لمحي الدين بن شرف النووي، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، الطبعة الأولى، 1996م، دار الفكر - بيروت.
28. تهذيب التهذيب: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الطبعة الأولى 1404هـ، دار الفكر - بيروت.

29. تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون مع آخرين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والبناء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة.
30. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى 1420هـ، مؤسسة الرسالة.
31. جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى 1420هـ، مؤسسة الرسالة.
32. الجامع الصحيح سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
33. الجامع الصحيح: لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، 1407هـ، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت.
34. الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 1405هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان.
35. جامع العلوم والحكم: لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى 1408هـ، دار المعرفة - بيروت.
36. جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، المشهور بابن دريد، تصحيح محمد بن يوسف السورتي، وزين العابدين الموسوي، مطبعة دار المعارف العثمانية - مكتبة الثقافة الدينية.

37. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء): لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية - بيروت.
38. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الطبعة الرابعة، 1405هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
39. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: لشهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالسمن الحلبي، تحقيق علي محمد معوض وآخرين، الطبعة الأولى، 1414هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
40. الدر المشهور: لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، 1993م، دار الفكر - بيروت.
41. الرد على الزنادقة والجهمية: لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق محمد حسن راشد، 1393هـ، المطبعة السلفية - القاهرة.
42. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، 1395هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
43. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
44. زاد المسير في علم التفسير: لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الطبعة الثالثة، 1404هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.
45. زاد المعاد في هدي خير العباد: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشر، 1407هـ، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت.

46. زاد المهاجر إلى ربه، أو الرسالة التوكية: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق د/ محمد جميل غازي، مكتبة المدني - جدة.
47. الزهد: لأبي عبد الله عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت.
48. كتاب السبعة في القراءات: لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة الثانية، 1400هـ دار المعارف - القاهرة.
49. سلسلة الأحاديث الصحيحة: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.
50. سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
51. سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت.
52. سنن الدارمي: لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الطبعة الأولى، 1407هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
53. السنن الكبرى: لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى، 1411هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
54. سير أعلام النبلاء: لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبي عبد الله، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة التاسعة، 1413هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.

55. شرح صحيح البخاري: لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة الثانية، 1423هـ، مكتبة الرشد - الرياض.
56. شرح الكوكب المنير: لتقي الدين أبي البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحى، المعروف بابن النجار، تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد، الطبعة الثانية 1418هـ، مكتبة العبيكان.
57. شرف أصحاب الحديث: لأحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبي بكر، تحقيق د/ محمد سعيد خطي أوغلي، دار إحياء السنة النبوية - أنقرة.
58. الشريعة: لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الطبعة الثانية، 1420هـ، دار الوطن - الرياض.
59. شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى 1410هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
60. الشفا تعريف حقوق المصطفى: لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الكتاب العربي - بيروت.
61. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس العسائي الحلبي، 1398هـ، دار الفكر - بيروت.
62. الصحاح: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، 1399هـ، دار العلم للملايين - بيروت.
63. صحيح الجامع الصغير: لناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، 1388هـ، المكتب الإسلامي.

64. صحيح الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الخامسة، مكتبة المعارف، الرياض.
65. صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
66. صحيح مسلم بشرح النووي: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار الجيل، دار الأفق الجديدة، بيروت - لبنان.
67. الضعفاء والمتروكين: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: عبد الله القاضي، الطبعة الأولى 1406هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
68. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: زكريا علي يوسف، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
69. العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي - بيروت.
70. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين العيني الحنفي، 1399هـ، دار الفكر.
71. كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
72. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، 1379هـ، دار المعرفة - بيروت.
73. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر - بيروت.

74. الفريد في إعراب القرآن المجيد: لأبي العز حسين بن أبي العز الهمداني، تحقيق: الدكتور فهمي حسن النمر، والدكتور فؤاد علي مخيمر، الطبعة الأولى، 1411هـ، دار الثقافة، الدوحة - قطر.
75. فضائل القرآن: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي، الطبعة الأولى 1426هـ، دار الكتب العلمية.
76. القوائد: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، الطبعة الثانية، 1393هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
77. فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، الطبعة الأولى، 1356هـ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
78. في ظلال القرآن: لسيد قطب، الطبعة الثانية، 1395هـ، دار الشروق - بيروت.
79. القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروآبادي، دار الجيل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
80. القدر: لأبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، الطبعة الأولى، 1421هـ، دار ابن حزم - بيروت.
81. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
82. الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النعلبي النيسابوري، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، الطبعة الأولى، 1422هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

83. لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، الطبعة الأولى، دار صادر - بيروت.
84. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، طبعة 1412 هـ، دار الفكر - بيروت.
85. مجموع فتاوى ابن تيمية: لأبي العباس أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحراني، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ومساعدة ابنه محمد، 1415 هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
86. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، 1419 هـ، دار الكتب العلمية.
87. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، 1395 هـ، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.
88. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية 1393 هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
89. المستدرک علی الصحیحین: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله أبي الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، 1411 هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
90. مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الثانية، 1420 هـ، مؤسسة الرسالة.
91. مشكل إعراب القرآن: لأبي محمد مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الرابعة، 1408 هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.

92. المصنف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، 1409هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
93. معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الطبعة الرابعة 1417 هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.
94. معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق د. عبد الجليل شلي، دار عالم الكتب.
95. معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة 1399هـ، دار الفكر.
96. المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، 1404هـ، مكتبة العلوم والحكم - الموصل.
97. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز النهي، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي عباس، الطبعة الأولى، 1404هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
98. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، الطبعة الأولى، 1405هـ، دار الفكر - بيروت.
99. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية - بيروت.
100. مفردات ألفاظ القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم. دمشق.

101. المواصفات في أصول الفقه: لإبراهيم بن موسى اللخمي الغنطلي المالكي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة - بيروت.
102. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، الطبعة الثانية، 1413هـ، المكتبة التجارية - مكة، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.
103. النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، 1399هـ، المكتبة العلمية - بيروت.
104. الوابل الصيب من الكلم الطيب: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرععي الدمشقي، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، الطبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
105. الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق عادل بن أحمد عبد الموجود وآخرون، الطبعة الأولى، 1415هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

فهرس الموضوعات

المقدمة	13
16 التمهد: الغاية من إنزال القرآن وفضل الفقه فيه	24
..... المعلم الأول: استشعار نعمة القرآن وأهمية شكر المنعم بها	29
..... المعلم الثاني: استقرار محبة القرآن وتعظيمه في القلب	41
..... المعلم الثالث: الأخذ بمنهج الصحابة في تلقي القرآن	55
78 المعلم الخامس: ملازمة التدبر؛ للتدكر، عند تلاوة القرآن واستماعه	93
..... المعلم السادس: إحياء القلب وتقويته بإقامة الفرائض والمداومة على النوافل	102
..... المعلم السابع: أهمية سلامة القلب وتطهيره من أدران الشبهات والشهوات	106
..... الخاتمة	108
..... فهرس المصادر والمراجع	120
..... فهرس الموضوعات	